مكتبة العقائد

— ٥ —

ضوء جديد على الإسلام

الرد على الملحدين

تأليف

محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر

دار الكرنك

للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) بالقاهرة

١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ديننا الكريم يدعو إلى الأهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ؛ دين الإسلام ، وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالإسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الانسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التى ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحقة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى .

ولقد جاء الاسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة ، وعقائد محرفة مضللة . . فبدل ظلام الحياة نوراً ، والجهل ثقافة وعلما وعرفانا ؛ ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ؛ وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية ، هى أسمى ما عرف فى المذاهب من مقومات وعناصر .

دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالإنسان إلى حياة مهذبة كريمة ، توفق بين المادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة .

وجه الاسلام الناس جميعاً إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ،والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر .. كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح، ويجمع بين خير الدنيا والآخرة ، ويرشد إلى أمثل ما فى الحياة من عدالة وخير ورحمة . . وجمعهم على كتاب واحد ، ودستور خالد هو القرآن ،كتاب الله العظيم . . وعلى رسالة واحدة ، هى رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ؛وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . فلم لا يكون الإسلام بذلك كله مثلا أعلى فى الحياة ؟

وسن الإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة، وتقدم المجتمع والأمة والإنسانية؛ على نحو يرضاه العقل ، ويطمئن إليه القلب والوجدان . . فلم لا يكون بذلك الداعى إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع . . ؟

وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التى تفضل جنساً على جنس ، أو جماعة على جماعة ، أو فردا على فرد .

يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

حاربها الإسلام لأنها تنادى بالتنابز والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد جمعهم أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

محا الإسلام ما كان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة التى كانت كثيرا ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفقير أخا الغنى ، والغنى أخا الفقير . ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال فى كل حق وخير ومعروف ، كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا بما قسم الله ، « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال فى أيدى الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم فيه ، « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وما ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم به خيراً وثواباً كبيرا ، « وأنفقوا خيراً لأنفسكم . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم » . فكيف

لا يكون الإســـلام بذلك كله هو المثل الأعلى فى الاجتماع والروح الإنسانى الكريم . . ؟

والأصول الأولى فى الإسلام تدعو الى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، والى الأخوة العامة والزمالة البشرية ، وإلى المدنية والحضارة والرقى والثقافة وإلى محاربة الأوهام والتقاليد الضارة ، والى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الانسانية فى الفرد والجماعة والأمة . . كما تدعو إلى السلام ، والى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفى سبيل خدمة المثل العليا، التى يدعو الناس اليها الاسلام .. وهى فوق ذلك فطرة الله التى فطر عليها ، و « صبغة الله ومن أحسن الله صبغة ؟ » . وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمور الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .. الى غير ذلك من الأهداف والمثل التى يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد فقد حرر الإسلام الانسان من الوهم والتقليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد . . وحرر المرأة من استبداد الرجل ؛ فجعل لها حقا فى الحياة وساواها به فى الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها للتصرف والتملك وتدبير

شئون المنزل والأسرة، والمساهمة فى أعمال الخير والبر والطاعات ، وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لا غنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها ، وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب . . وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان والمتزعمين . وحرر الأمم ، فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والايثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسئوليات . . وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات ، التى تضعف الروح ، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال فى الحياة . . وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والأثرة ؛ ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات ، والجنوح إلى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار ، والإيمان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد ، دون تحكيم للعقل ، أو وزن للأمور بميزان التفكير السليم . . ورفع مع ذلك كله الإنسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعاه إلى أن يسير الى أمثل ما فى الحياة من حق وخير وسمو ، والى أن يعمل على تقدم الحياة والإنسانية بأوسع معانيها .

ولقد أتت الروح الإسلامية الأولى بالمعجزات ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الادب والعلم والفن ، وفى التفكير والتنظيم، وفى شتى نواحى الحياة والحضارة .. ومن أولى بذلك من الإسلام . دين الله ، وشريعة رسوله محمد صلوات الله عليه ،ودستوره القرآن، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ، وأساسه الفضيلة والايثار والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجرد من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ما هو منكر وقبيح وباطل ؟ . فما أروع الإسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى . وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها ! .

وفى هذه الفصول ندرس أصول الاسلام ومبادئه وأهدافه ، ونوازن بينه وبين المادية الماركسية ، التى تحارب الله ورسله وشرائعه، وتتنكر لقيم الحياة ومثلها ؛ لنكون على بصيرة من الأمر ، ولنقف وقفة الجد فى سبيل الدفاع عن كل ماهو حق وخير وجميل فى الحياة ، وما توفيق إلا بالله . . .

الفصل الأول

بين يدى الكتاب

قضايا الحرية والاصلاح وتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس هى الشغل الشاغل اليوم للشباب فى مصر والعالم العربى ، لاتصالها الوثيق بحياة الشرق وآماله ومشكلاته وبالتفكير العالمى الراهن . والحديث عنها جميل محبوب ، لأنه ينبع من النزعات الإنسانية المتأصلة فى قلوبنا وأرواحنا ، ولأنه مقــدمة للاصلاح الذى لا يمكن أن ينهض مجتمع لا يؤمن به ، وديننا الكريم الذى نسعى بدوافعه الروحية العميقة فى نفوسنا هو أحفل الشرائع بمبادىء الإصلاح والخير والحرية والعدالة والتعاون بين الناس .

وبين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ، نرى البعض قد انحرف عن الجماعة ، وترك التفكير فى أهداف الدين ومراميه وأصوله ، وآمن بمبادىء أخرى تخالف ديننا وتقاليدنا الموروثة ، مبادىء مادية ملحدة تدعو إلى الإلحاد وإلى التبعية ، وتحاول أن تغرر بالشباب ببريقها الخادع .. إن الإسلام قد سبق المذاهب عامة إلى تقرير كل ما هو حق وعدل وخير وجميل ،

وإلى تطبيقه تطبيقا عاما على الناس كافة ، دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم ، لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين إلى وضع أصوله ، وسبق بيكون إلى المذهب العلمى ، وديكارت إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد والإيمان بما يؤدى إليه الدليل ، ووضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق والبحث والتفكير ، ولم يجعل للمعرفة الانسانية حداً ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والخادم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية فحسب ، دون النظر إلى التفسيرات الاقتصادية المادية التى هى محور تفكير الماديين .

ولقد سبق الإسلام الحضارة الغربية إلى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين الناس ، وإلى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسئولية الحاكم ، وإلغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان . وسبق إلى محو الأمية ومجانية التعليم والعلاج ، وتقرير مبدأ الضمان الإجتماعى للعاجزين عن الكسب : مسلمين وغير مسلمين ، وإلى محاربة الجشع الاقتصادى والاحتكار والربا والاستغلال ، ولقد فكر بعض المسلمين على عهد الرسول صلوات الله عليه فى تأجير أراضيهم الواسعة التى لا يزرعونها للفقراء فنهاهم قائلا : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وحجر عمر على الأشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة

لاحتلال أراضيها حتى لا يضيقوا على الناس قائلا : «ألا فان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا » .

إن حقوق الإنسان لم تعلنها الثورة الفرنسية ولا هيئة الأمم المتحدة ، وإنما أعلنها الأسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . وما بالكم بدين حمى حق الإنسان فى الأمن والحياة وفى الكرامة الإنسانية وفى تكوين الأسرة وفى السعى فى الحياة والمعيشة المطمئنة ، وفى مساواته بغيره مساواة كاملة أساسها العدل والإخاء ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع فى خدمة الفرد ، ووضع أصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وأيقظ الروح الإنسانى العام ، ودعا إلى أخوة الإنسانية كافة ، وحمى الفقير وجعله أخا للغنى ، وأوجب له من الحقوق ما لم توجبه له شتى المذاهب الحديثة التى يرنو الشباب ببصره اليوم إليها ، ولم يطلق للغنى الحرية يفعل ما يشاء ، بل طالبه بشتى الالتزامات المفروضة عليه يقدمها طواعية واختياراً تلبية لنداء ضميره ودينه ، وحذره أشد التحذير من الضن بالمال وعدم إنفاقه فى المصالح العامة ، « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

إن فى ديننا كل أسباب العزة والقوة والإصلاح . وكل طرق الخير والمعرفة ... وفى معرفته ودراسته تهذيب لعقولنا ونفوسنا وأفكارنا ، وكبح لجماح الشهوات ، ودفع للعمل من أجل الجماعة والمجتمع .

ونحن فيما سجلناه ودوناه فى هذا الكتاب ، إنما ننشد أن يفهم الناس حقائق هذا الدين وأصوله ومراميه وأهدافه ، إذ هو دين الإنسانية المثلى وشريعة الله الخالدة ، والله عز وجل حافظها ، ورافع رايتها إلى يوم الدين .

خصومة سافرة

يجتهد الملحدون اليوم فى الطعن على الإسلام وتنقصه والقدح فيه ، ويحاولون أن يقيموا الموازنة الجائرة بين الإسلامية والشيوعية ، ظانين أنهم بذلك يؤثرون فى ملايين المسلمين ، ويباعدون بينهم وبين دينهم الحنيف ، ليعتنقوا دينا جديدا يختاره لهم الشيوعيون .

واستمع إلى مايقوله هؤلاء الدعاة الخادعون المزيفون ، نقلا عن الكراسة الرمادية التى نشرها الفوضويون الماديون فى العراق منذ عام . . يقولون :

« إن الإسلام — ككل دين آخر — هو ظاهرة تاريخية معرضة الى تغيرات وتبديلات بحسب الظروف . ويمكن القول أنه نشأ نتيجة لعوامل تاريخية محضة ، وأنه - كدين - لايحتوى على شيء جديد . بل إن القرآن حافل بالشعوذة والدجل ، كما أن الإسلام خليط من القصص والأساطير والروايات ونبوءات كهنة العرب القدماء ومنجميهم . . . »

وهكذا نجد هؤلاء اليساريين الشيوعيين يشنون الحملات الرجاءة على الدين الإسلامى ، لالشيء ، إلا لما يتصف به هذا

الدين من قدرة على تكييف حياة معتنقيه فى كل جانب من جوانبها ، وليس هناك أسوأ ولا أقسى من اتهامات الفوضويين للإسلام فى الكراسة الرمادية ، التى نشروها باللغة العربيـة فى العراق ، وهى كراسة مأخوذة من بحث أعده باحث سوفيتى يدعى « ل . ى كليموفيتش » . وعنوان هذا البحث هو « الإسلام نشأته ومستقبله » ، ويحتوى على حملة من أعنف الحملات على الدين الإسلامى . اذ يتضمن آراء خطيرة تكشف عن قيام الشيوعيين بخطط مرسومة لزعزعة العقيدة الإسلامية وتجريح القرآن الكريم ، أن وجدوا الى ذلك سبيلا . وأمعنوا فى قراءة ماقاله هذا الباحث الفوضوى عن الإسلام مرة أخرى .

« ان الإسلام — ككل دين آخر — هو ظاهرة تاريخية معرضة الى تغيرات و تبديلات بحسب الظروف . ويمكن القول أنه نشأ نتيجة لعوامل تاريخية محضة ، وانه — كدين — لايحتوى على شىء فذ أو غير عادى ، وقد نشأ الإسلام فى شبه جزيرة العرب قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، عند ماكانت العلاقات الاقتصادية آخذة فى الانحطاط . وكانت هناك عـــدة دويلات عربية قد نشأت فى جنوب وشمال غرب الجزيرة العربية قبل مدة طويلة من ظهور الإسلام . ولكن هذه الدويلات سقطت بعد ذلك تحت ضربات الدول العظمى المجاورة لها (مثل

فارس وبيزنطة) . فمدن جنوب الجزيرة العربية التى كانت ظاهرة فى عهد الرومان لم يبق منها سوى خرائب مهجورة فى القرن السابع ، ونسيت تماما حروف الهجاء التى كانت تستخدم فى الكتابة ، ففقد السكان فن الكتابة كلية . . . وتعنى كلمة الإسلام — وهى لقب الدين الجديد — الطاعة والولاء لإله واحد . . . وكان اعتناق الدين على هذه الصورة من المقتضيات السياسية لتوطيد سياسة الأشراف وأتباعهم فى يثرب . وتدل بعض آيات القرآن على أن المسلمين صوروا الله بصورة الإنسان وصفاته . وكانوا يعتقدون أن النبى محمدا كان على اتصال مباشر مع الله ، وأن الأموات يمثلون أمام الله شخصيا . ويحتوى أقدم نصوص القرآن على آراء من هذا القبيل ، مما يدل على احتفاظه بشعوذات ونبوءات كهنة العرب القدماء ومنجميهم » .

« وتدل الآراء التى جاءت فى القرآن على تأخر وضيق ادراك العرب ، وضيق أفقهم . وترجع معظم خصائص الدين الإسلامى إلى ظهور هذا الدين فى الوقت الذى نشأت فيه العلاقات الإقطاعية بين أفراد مجتمع بدائى تسوده اختلافات كبيرة تتمثل فى اختلاف البدو عن الحضر . . بل إن الدين الإسلامى قد قام ليحمى ملاك العبيد ورؤساء العشائر والإقطاعيين ، فكل ماوصفت به حياة النبى محمد وأعماله العجيبة يذكرنا بحياة غيره من المؤسسين الخرافيين

للأديان الأخرى . كذلك عمد الاسلام الى تمجيد الخلفاء والإقطاعيين بعد موت محمد . . ! ! »

« وتحتوى قصص حياة محمد – بالاضافة الى التمجيد الخالد لهذا النبي – على أقوال فى وصف خصائص الأنبياء والوعاظ الذين كانوا يبشرون فى بلاد العرب فى زمن نشأة الاسلام . ولكن هذه الأقوال لاتقدم تاريخا كاملا لحياة أى واحد من أولئك الأنبياء . كذلك لاتوجد أية معلومات يوثق بها عن مؤسس الاسلام فى سجلات الإغريق والبيزنطيين والسوريين والأرمن . وإنما تشير جميع المراجع الى أن الدين الاســـلامى جاء نتيجة لحوادث وقعت فى بلاد العرب فى القرنين السادس والسابع الميلاديين . وتحوى مؤلفات مؤسس الماركسية معلومات هامة عن نشأة الاسلام ، وماهيته . فقد أكد «انجلز» أن ظهور الاسلام جاء نتيجة مباشرة للتطورات التاريخية التى طرأت على حياة العرب . ومن هذه الناحية يشبه الدين الاسلامى المسيحية والبوذية فى كثير من مظاهره . ويمكن القول بخصوص الأديان الثلاثة الرئيسية — اليهودية والمسيحية والاسلام — إنها جميعا تكونت بصورة شبه اصطناعية ، وبالأخص الدين المسيحى والدين الاسلامى ... فالواقع أن أعمال كهنة الاسلام كانت تهدف أساسا إلى تبرير الاستغلال الفاحش الذى كان قائما وسائدا فى ذلك العصر ،

فبالنظر إلى أن الاسلام كان الدين الرسمى للدولة فى زمن الخلافة الاسلامية فقد كانت الأحوال تساعد على منح كهنة الاسلام مقاما ممتازاً .. وكانت المبالغ الكبيرة التى تجمع من ضريبة « الزكاة » توضع بكاملها تحت تصرف الخليفة ورجال الدين بدلا من إنفاقها على الأعمال الخيرية . كذلك أحاط الخلفاء أنفسهم بوسائل الترف والرفاهية على حساب الكادحين .. وكان نظام الحكم الاسلامى مستنداً الى الظلم والعنف ... فالخلافة كانت حكومة دينية اقطاعية منظمة بشكل يساعد على استغلال الأقلية الحاكمة للأغلبية المظلومة ولهذا وضعت الشريعة الاسلامية بشكل أخضع الناس لسيطرة الطبقات الحاكمة بصورة دائمة ... فالقرآن والسنة والشريعة انما هى كتب تم تأليفها فى القرون الوسطى فى زمن سيادة الاقطاع ..»

« .. وتبرر تعاليم هذه الكتب الظلم والاستغلال .. ولكن المسلمين يعتقدون أن القرآن لم يؤلف ، بل كان موجوداً منذ الأزل وأن نسخته السماوية محفوظة تحت عرش الله ! والواقع أن الكتاب مؤلف ، وظل تحت التنقيح لمدة طويلة ، فقد وجدت فى القرن التاسع عشر نسخ من هذا الكتاب تختلف عن النسخة الشرعية ... هذا بالاضافة الى أن القرآن كتاب معقد . فهو يحتوى على عدد كبير من الأساطير والقصص المنقولة عن قدماء العرب ، وكذلك عن الأديان الأخرى : اليهودية والمسيحية والزرادشتية .

مثال ذلك مايحتويه القرآن من قصص التوراة عن الأنبياء ، فأساطير موسى ، ويوسف الجميل ، ويونس ، وعيسى المسيح ، وغيرهم ، تشغل جزءاً كبيراً من القرآن .. وبالرغم من ادعاء القرآن أنه واضح وخال من المتناقضات ، فهو لايتتابع منطقياً أو تاريخياً ، كما أن بعض آياته تناقض البعض الآخر ... وعلى هذا ، فإن مبدأ تنزيل القرآن وتقديسه ، إنما هو أمر يتعارض مع التطور العلمي ولا يتفق مع التقدم ... فأزاء القران بخصوص الكون والأرض والإنسان ، آراء بدائية جدا ومنافية للعلوم ، كما تدل على سذاجة عقلية وتكشف عن سذاجة مؤلفيه ؟ كذلك فإن الآراء الواردة فى « السنة » تناقض العلم . ويتضح من أقوال القرآن أن آراءه عن الكون ونشأته ، ونشوء الحياة وتطورها فى الأرض ، وأصل الإنسان ، انما هى وليدة التأخر والجهل ، كأنها منقولة عن الأساطير التى كتبت فى التوراة والكتب المقدسة الأخرى ، كذلك تدل المتناقضات الموجودة فى القرآن على أن الأشخاص الذين ألفوه لم يكونوا على علم بأن الحياة قد نشأت وتطورت تدريجيا على الأرض فى مئات الملايين من السنين . وكانوا يجهلون أن الانسان لم يظهر فجأة على الأرض بشكله الحالى ، بل جاء نتيجة لتطور الحياة طيلة التاريخ الماضى ، وهكذا فإن تعاليم الاسلام وقواعده — وأمثالها فى الأديان الأخرى —

تخالف العلم وتقف حجر عثرة فى سبيل التطور والتقدم الاجتماعى ... »

« والعلم لا يتفق مع الاسلام وغيره من الأديان ، لأنه لا يمكن التوفيق بين العلم وبين الآراء الخاطئة التى نشرها الاسلام وغيره ، عن الطبيعة والانسان ، فعلى غير ماتنادى به المفاهيم العلمية المادية ، يدفع الدين الاسلامى أتباعه الى التأخر بدلا من التقدم ، فالاسلام يرسخ فى أذهان الناس التشاؤم ويحط من قيمة الحياة المنتجة ، وبموجب القران فإنه يجب على المسلم أن يتحمل كل نوع من الأذى والظلم والبطش ، كما يجب عليه توجيه كل أفكاره نحو الحياة الوهمية التى تبدأ بعد موته ، ولهذا فإن إلغاء الدين أمر ضرورى لتحقيق السعادة للناس . »

تلك مقتطفات نقلناها عن ذلك البحث الشيوعى الذى شن على الاسلام ثورة خبيثة تهدف الى التشكيك فيه وزعزعة دعائمه ..

ولعل خير رد على هؤلاء الملحدين هو الفصول المتواضعة التالية التى ناقشنا فيها نشأة الاسلام ومقتضياته وما ينطوى عليه من مثل عليا وأخلاق كريمة . . .



« لكن الراسخون فى العلم منهم ، والمؤمنون ، يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما »

آية ١٦٢ سورة النساء

العزة شعار الإسلام

العزه لله ولرسوله وللمؤمنين ، العزة لله لأنه العزيز أبدا ، بقدرته القاهرة ، وإرادته المسيطرة ، وحكمته المهيمنة على كل شيء ، وعلمه النافذ إلى أعماق الكون ، سبحانه تفرد بالبقاء والوحدانية ، لاشريك له ، ولا عبودية إلا له وحده ، عز فى السماء والارض ، وهو الحق ذو القوة المتين

والعزة لرسوله ، فى حياته وبعد حياته ، عند الله والملائكة والناس أجمعين ، بما بلغ من رسالة ، ونشر من دين ، وأدى من أمانة تؤود الجبال الراسيات ، ويشرق جمالها وجلالها على الأرض والسموات .. والعزة له بمواقفه الخالدة ، وبطولته المثلى ، وتضحياته التى حولت مجرى التاريخ ، وغيرت اتجاه الانسانية ! وبدلت الظلام نورا ، والحرب سلاما ، والفزع أمنا ، واليأس رجاء وأملا فى الحياة ، فما أعزه وأروعه يوم وقف يقول لعمه : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .. والعزة له يوم حارب قريشا والمشركين فانتصر فى بدر وخيبر وحنين وفتح مكة ، وغيرها من المواقع التى سار ذكرها على وجه الزمان ومرور الأجيال .

ثم العزة للمؤمنين ، المؤمنين الصادقين ، الذى وصفهم الله عز وجل فى كتابه الحكيم فقال : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ، والذين كانوا هم المثل الأعلى للانسانية المهذبة الكريمة ، المطبوعة على الإيمان والحرية والعدل والبر والرحمة والنبل والرجـــولة والبطولة . . العزة لهؤلاء المؤمنين ، يوم وقفوا مع الرسول الاعظم ، ينافحون عن دينه ودعوته ، ويؤيدون مواكب الحق والتوحيد والنور ، ويمهدون للإنسانية طريق النجاة والفوز والنصر المبين .. والعزة لهم يوم خاضوا المعارك فى قلب الجزيرة وفى الشام ومصر وفارس والعراق وفى كـل مكان أشرق فيه نور الإسلام ، وخفقت فوقه رايته المظفرة ، فانتصروا على جحافـل الوثنيـة والشرك والطغيان والاستبـداد ، وحرروا الطبقـات والمجتمعات والشعوب من العبودية ، ونشروا كلمة الله فى الأرض ، وركزوا راية الإسلام فوق كـل ربوة ومعقل ومدينة وقرية وقطر .. والعزة لهم فى كل

حين خرجت مواكبهم المظفرة غازية فاتحة لا يردها جبل ولا سهل ولا بحر ، ولا يقف أمامها جيش ولا حصن ، مواكب النصر والعلم والحرية والنور ، من حملة المشاعل ، ودعاة الحقيقة ، ورعاة الذمم ، والموفين بالعهد ، والبانين لصروح الثقافة والحضارة والمدنية ، فسلام عليهم فى الأولين ، وسلام عليهم فى الآخرين .

والعزة للمؤمنين ما عملوا بكتاب الله ، وتمسكوا بشريعة رسوله المطهرة ، واستقاموا على الحقيقة ، ونهجوا مناهج الرشد ونبذوا الخلاف والشقاق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، وطهروا نفوسهم من الشرك ، وقلوبهم من الرياء ، وأرواحهم من الضعف ، ومشوا إلى الغايات الكريمة ، والمثل الرفيعة فى الحياة ، وأخلصوا الله ، يريدون وجه الله ، وينشدون مثوبته ورضاه

شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى
أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ،
أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ، كبر على المشركين
ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدى
من ينيب .

آية ١٣ سورة الشورى

أنا مسلم

— ١ —

أنا مسلم . . حقيقة عظيمة من الحقائق الكبرى التى ترتفع بمنزلتى فى الحياة ، وتسمو بنفسى أمام نفسى الى الذروة ، وينالنى شرفها وفخرها مادامت الحياة والأرض ومن عليها ، وأدرك مثوبتها وجزاءها فى يوم الجزاء الأكبر .

أنا مسلم . . أقولها ورأسى مرفوعة ، وأنطق بها وجبهتى عالية ، وأترنم بها فى الصباح والمساء أغنية حلوة ، ونشيدا جميلا ، أستمد منه العون والقوة ، وأتزود بزاده ، وأصارع به المحن والشدائد والخطوب .

أنا مسلم . . نعم أنا مسلم ، ومن عجب أن لا ينطق بها إنسان ، وأن لا يؤمن بمدلولها مفكر ، فالأرض بمخلوقاتها ، والسماء بأجرامها وكواكبها وأفلاكها ، وما بين السماء والأرض من عوالم منظورة وغير منظورة تكاد تنطق كما أنطق ، وتقول كما أقول : إننى مسلمة أسلمت وجهى لله رب العالمين .

أنا مسلم . . نعم أنا مسلم ، أكاد أتصور الزهر بأريجه ، والنبات وهو ينمو ، والربيع وهو يضفى ظلاله على الأرض ؛

والمطر وهو يتساقط من السحاب ، وكل مشهد من مشاهد الحياة والكون والوجود يقول فى فخر وزهو : أنا مسلم .

أنا مسلم ولماذا لا أفتخر بأنى مسلم . . لقد قالها آبائى وأجدادى من قبل فملكوا الدنيا وسادوا العالم ، وحكموا الأرض وحرروا الشعوب . . وصارت لهم العزة بين الناس . . لأنهم ساروا إلى الأمم إخوة متحابين متصافين متوادين ، ينشرون الهدى والنور والمعرفة والعدل، ولم يسيروا اليهم فاتحين مستعمرين ، ولا قاهرين باطشين ، ولا ناهبين أو مفسدين ، ولا طغاة وجبابرة . . فأحبهم الناس ، وهتفت بذكرهم الشعوب ، ودوى مجدهم فى كل مكان ، هداة مصلحين ، ورروادا منقذين ، وأئمة عادلين ، وحكاما يؤمنون بالعدل ويلتزمونه فيما بينهم وبين الناس .

أنا مسلم . . أشهدنى الله على هذه الحقيقة الكريمة وأنا فى الأصلاب ، وأنطقنى بها وأنا فى الأرحام ، واهتزت بها روحى ، وشاهدت سناها وسناءها عينى ، حين رددها قومى العرب الميامين فى بطاح مكة وأوديتها ، وفى أرض الحجاز سهولها وجبالها ، والرسول العربى محمد بن عبد الله يدعوهم اليها ، ويعلمهم الكتاب شاهدا عليهم ، ويرتل فيهم آياته وحكمته وبشارته ودلائل رسالة الله إليه ، هاديا لهم إلى الخير والحق وإلى صراط مستقيم .

أنا مسلم .. قد عرف أجدادى القيمة الروحية والفكرية

والاجتماعية والنفسية لهاتين اللفظتين ، فتحدوا بما حملوه فى قلوبهم من معنى الإسلام ومغزاه جميع صوارف الأحداث وقواهر الخطوب وشدائد المحن ، وسخروا من كل الفتن التى كادت تفتنهم عن الإيمان برسالة الإسلام ووقفوا أمام البطش والطغيان ساخرين باسمين متفائلين ، يذوب الحديد من قوة إيمانهم ، وتتفجر الصخور بالماء النمير من عظمة أرواحهم وعقيدتهم .

— ٢ —

أنا مسلم .. ولا زلت أذكر ملايين الضحايا التى ماتت وهى تهتف بهذا النداء الحبيب . فى عصر الرسول وهو يقاوم الشرك والوثنية ، وفى عصور خلفائه وهم يقضون على الامبراطوريات العظيمة العريقة التى أنهكت الأمم حربا واستعباداً واستعماراً ، وفى الأندلس والمسلمون يكافحون العصبيات الجائرة التى لا تفهم معنى لحرية العقيدة ، ولا لسماحة الدين ، وفى أرض الشرق العربى وأبائى يكافحون غزوات الصليبيين وهجمات التتار وحملات قواد الامبراطوريات الرومانية الشرقية التى أذاها جوار المسلمين لها فى الأرض ، بل وفى الهند التى دبر المستعمرون فيها منذ مائة سنة المؤامرات ليقضوا على أخر دولة إسلامية فيها ، وعلى أخر مسلم بها ، وفى كل العصور والبلاد ، حيث سقطت الضحايا لتعلم

الانسانية طريق الحرية ، ولتترك لهذا النشيد الرفيع ذكرا فى الأرض ، وليظل الأحفاد مستشعرين عظمة هذا الشعار وجلاله وعبقريته ..

أنا مسلم .. ولن أنسى دسائس الشيوعية ومكائدها وهى تحاول أن تزعزع أركان الاسلام وقواعده من الأرض ، وأن تهز قوة هذه العقيدة من نفوس المسلمين ، بأموالها وإذاعاتها وصحفها وبمفكريها وبمباديها المظلمة وبأساطيلها وطائراتها وجيوشها وبكل ما تملك من دعاية . ثم لم تصنع شيئا ، ولن تصنع شيئا ، والإسلام لا يزال قوى الأركان ، ثابت الدعائم ، راسخ الأصول والجذور ، وسوف يظل كذلك أبد الآباد بإذن الله .

أنا مسلم .. وسوف أظل ما حييت أذكر كيف انقضت المذاهب السياسية والفكرية والروحية والاقتصادية الوافدة من الغرب على بلاد المسلمين لتفتنهم عن دينهم وإسلامهم ، فمن شيوعية ملحدة ومن صهيونية معتدية متنمرة ، ومن ماسونية خبيثة متخفية ، ومن ديمقراطية ماكرة مترفقة ، ومن اشتراكية وفاشية ورأسمالية وسواها . ثم لم تقدر أن تحول بين المسلمين وبين عقيدتهم فى الله وفى الدين وفى مبادىء الاسلام العظيم .

أنا مسلم .. أسخر بكل ما أرى من أصنام نصبها الاستعمار

لتلهى المسلمين عن الطريق الصاعدة فى الأرض ، وأهزأ بكل ماأشاهد من أوثان أقامتها مذاهب الغرب الإلحادية لتصد المسلمين عن الدين ولتفرق كلمتهم ، وتمزق وحدتهم ، وتنشر الفساد بينهم ، وتجعل بأسهم بينهم شديدا ، وأبتسم وأنا أشاهد بيننا صاعدين يصعدون إلى المجد عن طريق الأبواب الخلفية التى يأنف أن يصل عن طريقها كل حر كريم ، وأبى عزيز .

أنا مسلم .. ولماذا لا أكون مسلما ، وكتابى القرآن ودينى الإسلام ، وعقيدتى هى العقيدة الصافية الطاهرة ، التى قررها وأعلنها إلى الإنسانية كلها محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

أنا مسلم .. وياله من شعار كريم روحى ، يعنى الايمان بالحياة وبالانسانية وبالسلام وبالخير وبكل ما هو حق وجميل ، ويعنى طهارة الروح وصفاء النفس ، ونقاء الضمير وقوة الخلق ، وعظمة العقيدة ، ويعنى الإيمان بالمثل الرفيعة ، وبالمبادىء العادلة ، وبالتشريعات الجليلة الهادفة إلى خير الفرد والأسرة والجماعة والأمة والبشرية عامة .

أنا مسلم .. أتذكر الاسلام أصلا عظيما يجمع بين الأولى والآخرة ، والدين والدنيا وترتفع به نفسى وروحى إلى السماء ، لا تخضع لأحد ولاتستشعر أحدا إلا الله وحده رب الأرض والسماء والكون والوجود .

أنا مسلم أشعر بعظمة الإسلام ومجد المسلمين لو أخلصوا الإيمان لله رب العالمين ، وأحتقر كل من يدعى الإسلام والاسلام منه براء ، وأضرع إلى الله أن يهدى المسلمين عامتهم وخاصتهم إلى دينه وإلى صراطه المستقيم .

— ٤ —

أنا مسلم أبكى لليتيم شرده اليتم . وللفقير ظلمه الغنى حقه ، ومنع عنه مافرضه الله له فى ماله من نصيب معلوم ، وأرثى للمظلوم هاضه ظالمه حقه ، وأنادى بأنه لن يستقيم حال المسلمين إلا إذا عادوا إلى الإسلام يؤدون فروضه ويلتزمون أوامره ونواهيه وحدوده ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه .. ويؤمنون بأنه لن يستقيم إيمان والمسلمون لا يحتكمون إلى دين الله فى جميع أمورهم وشئونهم الدينية والدنيوية على حد سواء .

أنا مسلم .. وسوف أذكر دائما عجب كبار رجال الفكر الإنسانى فى الشرق والغرب ودهشتهم وحيرتهم وتضاؤلهم أمام عظمة الإسلام وجلاله وسموه وروحه القوية الثائرة . وسأظل أذكر فى عجب حيرة المسلمين المعاصرين وفى آفاقهم الهدى ، وضلال شعوب الاسلام وأمامهم النور ، وذلتهم وحقارتهم فى الأرض اليوم ، وهم يملكون كل أسباب المجد والقوة والعزة والعظمة التى تتجمع كلها فى هذا الكنز الأعظم الالهى الثمين .. كتاب الله الحكيم .

أنا مسلم .. أذكر حضارة المسلمين المشرقة بالأمس ، وجامعاتهم ومدارسهم ومعاهدهم العظمة القديمة التى نشرت الثقافة والمعرفة بين جميع أمم الأرض ، وكانت سببا فى بزوغ عصر النهضة والإحياء ، ثم انطفأ النور وخبا المصباح ، وعاد المسلمون فقراء جهالا مرضى لأنهم بعدوا عن دين الله وعن مصدر الخير والحضارة والنور فى الأرض ، وهو الإسلام وكتابه الحكيم .

أنا مسلم .. أفتخر بأمسى ، وأبكى لحاضرى ، وأدعو الله أن يجعل غدى وغد أولادى وقومى والعرب والمسلمين عامة مشرقا وضاء زاهرا باهرا .

آمن الرسول بما أنزل اليـــه من ربه والمؤمنون
كل آمن بالله ومـــلائكته وكتبـــه ورســـله لا نفرق بين
أحـــد من رسله ، وقالوا : سمعنـــا وأطعنا ، غفرانك
ربنا ، واليك المصير .

آية ٢٨٥ سورة البقرة

رسالة من السماء

— ١ —

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود ، لا بد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة . وذلك الناموس الذى كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لا بد أن ينزل على رسول كريم من جديد ، ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة فى بطئها ، والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس فى الحياة ، وتوالت البشارات تجدد الأمل ، وتحيى الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية ، وتنبئهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لا بد أن ينهار ملك كسرى وقيصر ، لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ، ولأن عهد استعمارهما للعالم لا بد أن ينقرض ، والحرية الكبرى من ذا يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيد الله بن جحش ، يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض : « تعلمن والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . . وذهبوا يطوفون فى البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . . .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحدمنكم على دين ابراهيم غيرى.. ثم يقول : والله لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته ؛

وفى مكة فى صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوما بعد يوم بشريات وأى بشريات ،

ويحفظ الناس ما ذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة المعطرة وبدأ النور الالهى يظهر فى الأفق ، وأخذ الناموس السماوى يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب الغلام ونما ، نبيلا شريفاً وسيدا سريا ، وفتى زكيا ، ولقى قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر . وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ، ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت حليمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهور كان محمد الغلام يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائماً منتقعا وجهه فالتزمته هى وزوجها ، وقالت : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان ، عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ماهو : فتخوفت عليه حليمة ، وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبنى لشأنا أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى به قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فو الله ما رأيت من حمل قد كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته

وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة . وما أصدق ما يقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى .

ورأى بحيرا الراهب محمداً الغلام ، فى بصرى بأرض الشام ، مع عمه أبى طالب ، فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ، ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه فان له لشأناً عظيما .

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالما بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الامة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه . . وجعل ورقة يستبطىء مرور الأيام ، ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

— ٢ —

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، يبلغه رسالة الله ، ويحمله أمانته .

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى ، وسمع الصوت الإلهى يناديه من كل مكان : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الامة ، ثم

انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الامة . . ولقيه ورقة فى الكعبة وهو يطوف بها فقال : ياابن أخى والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الامة، ولقد جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الابطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمى حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيـــانهم .

وقبيل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم فى بيت أم هانى : بنت عمه ، إذا جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمدا وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس فصلى بالانبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يا محمد ، ثم عرج إلى السماء فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالافق الاعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق . واليقين النبوى العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت فى كل مكان ، ودعا إليها الناس كافة وأرسل بنبئها الرسل إلى الامراء والملوك والاقيال .

ثم اختاره الله إلى جراره الكريم ، بعد أن أنشأ أمه ، وأسس دولة ، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله .

صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون وحمده الحامدون ..

— ٣ —

وخفقت أعلام الإسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته فى كل قطر ، يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الأمم من إسارها ، ويرفعون عنها الأغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ، ويمحون ظلال الاستعمار والاستعباد والاضطهاد من الارض ، ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الأرض ، وليست الأمم ملكا للملك ، ولا الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال ولا نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. العدالة والانصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .

وبعد قليل كانت الجامعات الإسلامية فى قرطبة ، وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية وفى الفسطاط والقاهرة ؛ وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ،وفى كل مكان ..كانت تعج بالطلاب والأساتذة ولنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ؛ وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الإنسانى بين شتى العناصر والألوان والأجناس ولخدمة الشعوب الإنسانية والرقى بالحياة .

بينما كانت أوربا فى الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل والجمود والقذارة والحجر على الحريات . وتنتقل من عصور الرق والبائدة إلى عهود الإقطاع القاسية .

فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ، ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم ، والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر . ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة

والوفاء وحسن العهد ، وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والإخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم روس الاستعمار فى كل مكان ، وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله وأقام للحرية مناراً عاليا يفيء إلى ظله كل إنسان ؟ .

إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة ، وخاتم الأنبياء والمرسلين . . وصدق الله العظيم : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما» .

— ٤ —

إن الإنسانية مدينة لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من نظم وتعاليم ، وما وضعه من أسس فى التشريع ، تقصر عنها عقول البشر ، وما حققه لها من معان سامية ، ساوت بين الناس ولم تجعل لعربى فضلا على عجمى إلا بالتقوى : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وبهذه المبادىء والتشريعات الإلهية ، كفل محمد صلى الله عليه وسلم لبنى الإنسان السعادة والعزة والمنعة ، وهيأ لهم حياة كريمة ينعمون بها فى الدنيا ، ويؤجرون عليها فى الآخرة .

لقد وأد محمد الوثنية فى جزيرة العرب ، ونشر مكانها التوحيد والحرية والحق والإخاء والمساواة ، وبدأ يصبغهم بصبغة جديدة

من ألوان الحضارة ومظاهرها ، وأخذت تنمو هذه الصبغة حتى صارت مدنية زاهرة فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وشتى عواصم العالم الإسلامى التى كان يشع منها نور الحضارة والمعرفة والرقى ، وهكذا صدقت نبوءة المسيح : « عندما يأخذنى الله من العالم ، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة ، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتناق بأنى أنا الله فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذى خلق كل شىء لأجله ، الذى سيأتى من الجنوب ، وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحمة الله »[1] « ويعلم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم »[2]... إن دين محمد صلوات الله عليه بحق دين الحرية والإخاء والمساواة والحضارة ، ولقد شهد بذلك المفكرون فى الغرب : قال « كاين تيلر » : الإسلام أفاد التمدن أكثر من غيره ، ونشر علم الإخاء والمساواة » .

وقال « يوسورث سميث » : كان محمد موفقا توفيقاً فريدا فى بابه ، لم يحدثنا التاريخ عن مثله ، فجمع بين زعامات ثلاث : هى

---

(١) الفصل السادس والتسعون من انجيل القديس برنابا أحد الحواريين ؛ وهو قرب من الأناجيل إلى الصحة .

(٢) الفصل السابع والتسعون من المرجع نفسه

زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أميا فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، هو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم .

وقال اللورد « هدلى » : «رسالة محمد إلهية صادقة لاريب فيها ، هدى للمتقين ، أوحى الله بها اليه ، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراة ، مكملة لكتاب المسيح . كان محمد داعيا إلى الرحمة والعدل ، والكرم والشجاعة ، والصبر على المكاره والصدق ، يعتقد أن الدين هو أقرب الأشياء إلى العقل وإلى الطبيعة ، وأن الإنسان ما هو إلا مظهر من مظاهر الله ، وكان محمد غيوراً متحمساً ، وكانت غيرته وتحمسه لغرض نبيل ومعنى سام » .. وسوى دلك من شهادة « توماس كارليل » و « تولستوى » و « جوته » وسواهم من أفذاذ الفكر الأوربى الحديث .

قامت على مبادىء محمد صلوات الله عليه دولة عظيمة لم تكن الشمس تغيب عنها ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة لا زالت محل إعجاب الباحثين والمفكرين ، وهى نواة الحضارة الأوربية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل أفكار الأمم القديمة : من هنود ، وفارسيين ، وصينيين ، وإغريقيين ،ورومانيين ،ومصريين إلى العالم الحديث ، ولولا مجهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها ...

الفصل الثاني

الإسلام دعوة إنسانية

مضى على وفاة محمد صلوات الله عليه نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولا تزال ذكراه الخالدة ملء القلوب والأسماع ، وحديث الإنسانية الذى لا ينسى ، ونشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا العربى الأمى ، تقديسا للرسالة التى حملها وبلغها عن الله ونشرها فى الخافقين ، وإيمانا بسمو ما أتى به من دين ، وأداه من عقيدة ، فإن الإنسانية كلها لتذكره لأنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد فى تاريخها الحافل المديد .

إن عظمة محمد بن عبد الله ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، وليس مرجعها عظمة الأمة التى ظهر فيها ... وليس مردها فحسب إلى جنسه وشرفه وجلال شخصيته وسمو خلقه وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل المهذب فى الحياة ، وأنه عاش مع فقره مجاهدا ، ومات مجاهــدا فى سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه رسول الله الذى اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ كلمة الله إلى الأرض على فترة من الرسل ، وانقطاع الوحى عن البشر ، وبعد أن ضل الناس وجهلوا هداية السماء التى بشر بها من قبل الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات ، وخاتمة النبوات ، وبشر بدين الله بين الناس ، وإلى أن الرسالة التى أداها عن الله هى دين البشرية عامة ، وعقيدة الإنسانية قاطبة ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها . بما حوته من دعوة إلى التوحيد المطلق ، وحرية العقيدة ، وتقديس للشرف والكرامة والمروءة والفضيلة ، وتقرير لمبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة . . وبسمو روحها ، وجلال نزعاتها ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان الأدبية فى الحياة .

وباشتراكيتها العادلة ، وديمقراطيتها الحقة ، وما سنته من حب ورحمة وتعاون وشورى بين الناس .

وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، وللعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك والضلال والفساد والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة والشهوات الجامحة ، والأساطير الكاذبة والتقاليد البالية والأوهام الضارة .

ويحسب محمد عظمة ، أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية المطلقة ، والزمالة البشرية المشتركة ، وأنه حارب العصبيات والقيود الجائرة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

فكانت هناك أخوة اسلامية كاملة ، لوحدة الأمة وحفظ كيانها « انما المؤمنون اخوة » ، وبجانبها أخوة إنسانية عامة ، تجعل الناس جميعا على اختلاف نزعاتهم وعناصرهم وأديانهم وألوانهم إخوة فى الانسانية . . . يفرض الاسلام أن يكون لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ماعليهم من حقوق وواجبات « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

هذه الدعوة الجديدة التى دعا اليها الاسلام كانت منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفى عصر يستحيل فيه التفاهم والتقارب والوحدة ، لسوء المواصلات ، وكثرة الجهل ، وقلة العمران والمدنية والحضارة ، وانتشار العصبيات . . ولم يدع المفكرون الى بعض مبادئها الا فى القرن العشرين ، بعد أن هيأت الحضارة

أسباب التقارب والمودة والإخاء . وكانت دعوة الاسلام اليها منذ ذلك العهد البعيد ، معجزة لهذا الدين ولرسوله العظيم ، الذى جعل الناس إخوة لافرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم ، وأعجميهم وعربيهم ، حتى لقد غضب رسول الله اذ أهان صحابى من صحابته عبدا أسود زنجيا فعيره بأمه ، وقال له ، يا ابن السوداء ، ورؤى الغضب فى وجهه ، وقال : « طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بتقوى الله أو بعمل صالح » .

ثم لم تهدأ شعلة هذه الحياة المتقدة ، ولم ينطفىء مصباح حامل تلك الرسالة السماوية العظمى ، إلا وقد جمع محمد العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء اليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ؛ وما أروع ما يقول فى رسالته اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين (عامة الشعب) ، يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ،

ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ثم حمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم اليها وحمل الإنسانية عليها ، فوصلت عقيدة محمد إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل هذه الرسالة عقيدة أكثر من سدس العالم المعروف اليوم ، ولن تزال حية بما فيها من حياة وحرارة وتجدد ونمو .

ولقد اعترف أفذاذ مفكرى العرب بفضل محمد على الحياة وبأياديه الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : مما لا ريب فيه أن النبي محمدا من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام . ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال : إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا ، لأكثر من مائة مليون من البشر ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور »

« يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءاً وأنزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »

[٢١ و ٢٢ سورة البقرة]

محمد رسـول من الله

ليس الدين الإسلامى من ابتـكار محمد صلوات الله عليه وابتداعه ، وليست حقيقة محمد أنه إنسان عظيم عبقرى ، أتى بفـكره بشريعة متقدمة .. لأن كل الحقائق تـكذب هذا الزعم وتفنده ، ففى القرآن تهديد له ووعيد ، وفيه تحذير له وإنذار ، ونفس الشريعة التى أتى بها شريعة متحرزة متطورة لا يمكن لبشر أن يأتى بمثلها ، وفيما أتى به القرآن من الغيب والحوادث وقصص الماضين وكثير من الـكشوف العلمية ، فى الـكون والحياة ، ما يدل على أن ذلك الدين العظيم هو وحى من عند الله .

ويذكر جماعة من الأطباء المصريين المعاصرين فى مجال بحوثهم الطبية فى القرآن الـكريم : أن القرآن قد سبق العلم الحديث بكثير ، وأنه قد أحرز منذ حوالى ١٣٩٠ سنة تقريبا من التقدم ما وصل اليه الطب اليوم . وقد اثبتت الدراسات العلمية أن القرآن الـكريم قد سبق العلم فى كافة فروعه . وكان ميدان الطب هو احد الميادين التى حقق فيها مثل هذا التقدم .

تقول الآية الـكريمة . . . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » ، والميتة هى المواد التى أصابتها الميـكروبات المتعفنة . .

وهى تكفى لاصابات من يتناولها إصابات قاتلة . والدم أسرع وسائل العدوى للامراض . والمعروف الآن أنه إذا استعصى على الطب علاج مرض ما ، لجأ الأطباء إلى الدم ليكشف بواسطته عن الأمراض . . وأما لحم الخنزير . . فقد ثبت أخيرا أنه العائل الأصلى للدودة الشريطية . . وفى غيابه تنقطع الدائرة التى تعيش داخلها هذه الدودة وما تحمله معها من أمراض . . وآية أخرى . . تسجل أن عسل النحل فيه شفاء . . واليوم . . ألأثبتت أبحاث العلمية ن للعسل الأبيض فوائد أكيدة لأمراض كثيرة . بل إن استعمالاته تزداد فى كل يوم ، وأصبح عسل النحل يستعمل كعلاج سواء عن طريق الفم أو بالحقن ، ويفيد فى حالات التسمم الناتجة من تناول مواد خارجية كالزرنيخ والزئبق أو الداخلية كالتسمم البولى ، ويستعمل مسحوق منه كبودرة فى سرعة التئام الجروح دون أن تترك أثرا . وكان مستشفى « نورفلك » فى انجلترا أول من استعمله فى العلاج .أ وخيرا تم انشاء معهدين فى الاتحاد السوفييتى لاجراء التجارب على المرضى ومدى تأثير عسل النحل فى علاجهم .و دخل المعهدين حتى الآن ٥٠٠ مريض . . والقرآن سبق علم الأجنة . ! فقد قرر قبل الطب الحديث ان الجنين يتكون محاطا بثلاثة أغشية صماء ، لا ينفذ اليها الماء ولا الضوء ولا الحرارة . وهذه الحقيقة وصل اليها الطب فى القرن الحالى ، وسموا هذه الأغشية بالأغشية الميمبرينية والأميينية والكربونية . . وتنص على ذلك الآية :

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، فى ظلمات ثلاث . . » .

وفى كل يوم ، تحمل لنا الحقائق العلمية ما يثبت اعجاز القرآن العلمى . ففى طب الفضاء أثبت العلماء أن الانسان كلما ارتفع فى طبقات الجو تعرض لضغوط كبيرة تبعاً لمكونات الهواء ، فيصاب بضيق تنفس و بعض الأمراض الأخرى تعرف بأمراض الفضاء . وقد سبق القرآن العلم فى تقريرها ، وتحدثت الآية عن ذلك فقالت : « ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء » . . هذه بعض أمثلة لمئات من الآيات التى تثبت أن القرآن قد سبق العلم الحديث .

ونحن من جانب آخر فى البحث عن شخصية الرسول صلوات الله عليه ، نجد أن القرآن الكريم لا يتحدث عن محمد الرسول بشىء ، لم يتحدث عنه إلا آمرا له بابلاغ قومه رسالة الله ، أو معاتبا له على تقصير وقع معه كما فى قوله تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكره فتنفعه الذكرى[1] » أو مهددا له تهديدا مزعجا مخيفا ، كما فى قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه

---

(١) سورة عبس آية ١ — ٤

اوتين[1] ، أو ناصحاً موجهاً آمراً ، كما فى قوله تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » [2] وقوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » [3]

وقد كان محمد صلوات الله عليه أعظم شخصية ظهرت فى العالم كله خلال مختلف عصور التاريخ ، وكان مثلا أعلى للانسانية فى حياتها الطويلة ... إنسان بدل سير التاريخ ، وبشر جمع صنوف الكمالات ، وقائد ضرب أروع الأمثال ، ومعلم للبشرية بدلها بالظلام نورا ، وبالجهل علما ، وبالوحشية مدنية وحضارة وعمراناً .

كان فى طفولته ويتمه مثال النبل والجمال والكمال ، وفى شبابه مثال الأمانة والعفة والخلق الرفيع ، وفى رجولته كان أرفع شخصية فى مكة ، وكان الحكم بين القبائل حين اختلفت على من يضع الحجر الأسود فى مكانه يوم أن جددت قريش البيت العتيق .

ثم نزل عليه الوحى من السماء ، وأضاف إلى هذه الكمالات اللانهائية كمالا آخر مستمداً من الله وعنايته .

---

(١) سورة الحاقة ٤٥-٤٧
(٢) « الذاريات آية ٥٥
(٣) « الطور آية ٢٩

وسخرت به قريش وناوأوه وعذبوه ، وشردوا أنصاره وفتنوهم ، ومحمد صامد صمود الجبال ، لاتلين له قناة ، ولا يفرط فى أمانة .

إن من شأن الإنسان أن يجامل ويدارى وينافق ، حين يشتد الظلم ، وأن يسكت عن عقيدته أحياناً حين يسلط عليه العذاب .. ومع ذلك فان محمداً لم يلن ولم يهن ولم يسكت ولم يجامل ، وقال لعمه : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ، ثم هاجر بدينه وهاجر قومه ، وصار الزعيم الروحى الاكبر لكل من آمن برسالته ، كما صار الحاكم الأكبر للمدينة ، فضرب أروع الأمثال فى السياسة والشورى والديمقراطية وحب العدالة والإيمان بالحق والحرية والإخاء والمساواة .

وقاد محمد المسلمين ليدافع عن العقيدة الإسلامية ، فكان أعظم قائد فى الحرب وفى السلام . ومعاملته للاسرى وللقبائل المهزومة وللبلاد المفتوحة دستور عظيم من التسامح والإنسانية ، وهو الذى قال لخصومه من قريش بعد فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم استقرت الدعوة الإسلامية فى الحجاز ، فبعث بكتبه ورسله إلى الملوك والأمراء فى كل مكان حتى إلى كسرى وقيصر ؟ نعم

وأيم الله ، أرسل إلى كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام ، وهما القادران على أن يدكا جزيرة العرب كلها بمن فيها دكا بالجيوش والسلاح .

ومن عجب أن تنبغ شخصية محمد اليتيم فى طفولته فى وقت مبكر جداً وغير مألوف ، أليس ذلك معجزة لرسول الله ، حتى وهو فى المهد صبى ، وكذلك من شأن الشاب أن يعيش كما يعيش الناس فى بيئته ، وأن يفكر فيما يفكرون فيه ، ولكن محمداً خالف ذلك كله ، فأضرب عما فيه قومه وأخذ يبحث عن الحق والنور .

ومن شأن أبناء الأسر الكبيرة أن ينشأوا على اللهو والترف ، أو على الفجور والطغيان ، ولكن محمداً لم يكن كذلك بأية حال فى شبابه .

معجزات فى معجزات فى حياة الرسول الأكرم ، وشخصية ويا لها من شخصية ، اهتزت لها الجبال ، وهتفت باسمها الأجيال ، ولا يزال التاريخ يذكرها بالإعجاب والتقدير والإجلال .



داعية السلام والحرية

المؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام، وحرصاً عليه لأنه سبيل الطمأنينة وللكرامة الانسانية . وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها، وعرف أنها سبب العزة والحياة، وباب التجديد والامل والتقدم والمدنية .

وما أروع مواقف سيدنا محمد صلوات الله عليه فى تقريره هذه المبادىء الكريمة والدفاع عنها .

ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء، فقد كان بطل السلام، وداعيته الكريم . حتى رأيناه يشترك صغيرا فى حلف الفضول مع بنى هاشم وزهرة وتيم، يتعاهدون «الله المنتقم «ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه »، وكان يقول : « لقـــد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار ابن جدعان، ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت »، ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته

وكانت سياسته — صلوات الله عليه — اللين والشفقة والتواضع، وتحيته « السلام عليكم ورحمة الله »، عاش مؤمناً بالرحمة والمحبة

والتعاون والإخاء ، آخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين وأن البشر جميعاً إخوان فى الانسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ، ونزل القرآن الكريم يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أشد المواقف وأحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون فى الطائف ، وأقبل يدعوهم لدينه ، كيف يجلس إلى ظهر بستان ، ويتوجه إلى ربه قائلا : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » .

لم يمش محمد إلى الحرب ، إلا دفعاً للعدوان ، ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيدا للسلام والحرية . حتى وقف وهو حدث السن يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط النفوذ والسلطان ، أو الفساد والاستغلال والطغيان ؛ ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الاقناع والبرهان ، وقال له ربه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التى نزلت عليه ، وهى الإسلام

اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على النفس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة ، حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ، يشكون ويضجون ، فقال له : ياعم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، : تقولون « لا إله إلا الله » ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فسخروا منه ، وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلم، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه. أما محمد المدافع عن الحريات فان أمره لعجب ، أحب الحرية منذ طفولته ، وورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله عليها ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبياً ، وفتى حراً عربياً ، يتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم، وغضبه للحق وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ومقاومة المعتدين والغاصبين، وزياده عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين ، الذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد فجلس إليه خباب وعمار وبلال ويسار وأشباههم ، هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ما سبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه » .

قرر محمد وحمى الحرية الشخصية، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة .. ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم، وتهذيبه الضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أو يعتدى على أحد، مضرب الأمثال. وجاءت معاهدته الأولى مع المخالفين له من يهود يثرب خير تقرير لحرية العقيدة الرأى، وحرمة المدينة والمال، كما يقرر الباحثون.

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق، وحرر وهو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة، وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم، كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال: «من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منى»، وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب، وألغى العصبيات والامتيازات والفروق الطائفية والعنصرية، فالناس سواء كأسنان المشط، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، إلا بالتقوى والعمل الصالح، وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة على غيره من الناس.

هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية، والذى لم يلبس مسوح السلام، ليخدع الناس ويغرر بالشعوب، والذى حطم الشرك

والوثنية ، وهدم عروش الطغيان والجبروت ، وألغى الرق البشرى ، وأبق أسرى الحروب المشروعة فى نطاق واسع من الشرف والكرامة ، والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة تخضع لأسمى المبادىء ، وتؤمن بأكرم الأهداف وتطبقها ، والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ، ليس هناك سيد ومسود ، إنما السيادة لله ولرسوله ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة . . . .



ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات ومن فى الأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير.

آية ٤١ و ٤٢ سورة النور

الفصل الثالث

بين الماضى والحاضر

— ١ —

فى شهر ربيع الأول من كل عام تشرق على العالم الإسلامى أضواء باهرة ، تهديهم فى ظلمات الحياة ، هى أضواء لذكريات مجيدة ، وتاريخ عظيم ، وماض حافل بالعزة والكرامة ، والخلود .

فى هذا الشهر يذكر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، مولد أعظم رائد وأروع قائد وأكرم نبى ، وأجل رسول . ويذكر معهم العالم كله كيف ولد محمد بن عبد الله القرشى المكى ، وكيف نشأ ، وكيف شق لنفسه الطريق فى حياة كانت كلها ظلما وجورا ، ووثنية وشركا وضلالا وإفكا ، وبهتانا وإثما : ويذكرون تأييد الله له طفلا وفتى وشابا ورجلا ، وكيف صار هذا الطفل الأمى أعظم إنسان شهدته بطاح مكة . . . ، وشاهدته أرض الحجاز واهتزت لبطولته وعظمته ولشريعته ورسالته ، الأجيال والأقيال والأبطال . . يذكر ذلك العالم كله منذ ولد حتى الآن . .

واصطفاه الله لرسالته واختاره من بين خلقه لنبوته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكافح وجاهد وصبر وصابر ، وناضل ، دعاة

المذاهب القديمة الوثنية نضال الحكماء الموهوبين . وأعلن فى غير مواربة ولا خفاء واستحياء أن الدين عند الله الإسلام ، ونزل القرآن من السماء ، يشرح عقيدة الإسلام وأصوله ، ويدعو إلى التوحيد الخالص وإلى الصفاء والطهر ، وإلى الإخاء والمساواة ، وإلى الحق والعدل وإلى البر والرحمة ، وإلى الحرية للناس فى الأرض ، وإلى السلام والمحبة والتعاون بين الناس كافة ، وخاصم زعماء الوثنية محمد بن عبدالله فخصمهم ، وغالبوه فغلبهم ، وائتمروا به وبأنصاره ومن آمن به فائتمر بهم ! وأعلن عليهم الحرب فى غير هوادة ، وهو فى قلة عزلاء ، وهم فى كثرة مدججة بالسلاح . ثم انتصر عليهم فى مواطن كثيرة ، انتصر عليهم فى معركة الجدل الدينى وفى معركة الخصومة القبلية والسياسية وفى معركة الدعوة إلى الله ! وفى معركة الحصار الاقتصادى الذى فرضته قريش على الرسول وأصحابه وقومه ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسما باهرا بهجرته الخالدة من مكة إلى المدينة ، حيث شق لنفسه ولدعوته والمؤمنين به طريق النجاة والفوز والغلبة والنصر العظيم بإذن الله .

وفى المدينة كثر خصومه فصاروا طوائف عديدة ، منها طوائف المشركين ، وطوائف أهل الكتاب ، وطوائف الدعاة إلى الخصومات القبلية . ثم اتسعت دائرة خصومه حين نازل الوثنية فى الأمم المجاورة لجزيرة العرب ، ومن بينها الفرس والروم والقبط

وغيرهم ، وكانت رسائله إلى كسرى وقيصر والمقوقس وأقيال الجزيرة العربية إنذارا ضخما من قائد الرسالة المحمدية إلى أعظم ملوك الأرض وأشدهم بأسا وقوة .. إنذارا غريبا لا يتصوره عقل ، ولا يدرك كنهه إنسان ، إنذاراً دوى فى العالم صداه ، ولم يدر أحد حده ومداه ، وتصوروا لو أن رجلا أعزل من السلاح والمال أرسل إلى زعماء العالم الغربى من طواغيت الاستعمار أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بدين منزل من السماء وإلى الكف عن استعمار العالم واستغلال البشر والى ترك الحرية للشعوب المغلوبة على أمرها ، والى رد المظالم لأربابها وإلى الكف عن العنجهية والجبروت والفساد فى الأرض والكذب على الله وعلى الناس ، لو أن إنسانا فعل ذلك ماذا يكون مصيره ، وإلى أية نهاية تكون نهايته . تصوروا ذلك لتعرفوا مدى عظمة الرسول وجلاله ومجده وتأييد الله له ورعايته لرسالة محمد بن عبد الله .

— ٢ —

وظل الرسول يدعو الناس الى الله والى الحق والى صراط مستقيم ، حتى تم نزول الرسالة عليه وأوضح الله الحق بالقرآن يتلى بين يديه وعرفت الأمة المحمدية السبيل الى الله واهتدت بهداية الإسلام ، وآمنت بدعوة القرآن ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .. ثم مات الرسول بعد أن ترك للناس رسالة واضحة لا يضلون بعدها ،

وأبان لهم معالم الطريق . ونصب لهم الصوى والأعلام ، وحد حدودا للحلال والحرام ، وبعد أن وأد الوثنية فى جزيرة العرب ؛

ثم طار خلفاؤه الى كل مكان فى الأرض يئدون فيه الشرك والوثنية والاستعباد والظلم ، ويعلنون على الجماهير فى كل مكان شريعة الله ، ويدعونهم الى السلام والوئام والمحبة والإخاء والصفاء والطهر والرحمة والتعاون والى كل مبدأ كريم ؛ وخلق نبيل ؛ وعبادة طيبة ، وعقيدة طاهرة .

— ٣ —

واستظل العالم بظل الرسالة المحمدية أجيالا وقرونا ، وعرف الحضارة والمدنية والثقافة والمعرفة وشاهد الناس النور يشرق على كل أفق ، ويسطع فى كل جو ويهتدى به الناس فى كل مكان . . وقامت الجامعات الإسلامية ورجال الفكر الإسلامى بأعباء البحث والكتابة والتأليف ، والتف حولهم الطلاب من كل مكان ، وهاجر العلماء يطلبون العلم فى كل صقع ، وسطعت أضواء الحضارة الإسلامية مشرقة وهاجة حتى عشا الى نورها الشرق والغرب .. كل هذا وأوربا نائمة فى الظلام ، تعيش على الأوهام ، وتحيا فى خيالات وأحلام ، كما تعيش اليوم القبائل فى أواسط أفريقيا وفى غابات الأمزون .

ولماذا كل هذا ؟ لا شىء إلا أن رسالة نزلت فى وسط العالم

الإسلامى ، وإلا أن هذه الرسالة صارت عقيدته وشريعته . فنقلت كل إنسان آمن بها من الظلام إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ومن الشر الى الخير ، ومن الجور إلى العدل ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن البغضاء الى المحبة والتعاون بين الناس . . ثم دعت هذه الرسالة كل من آمن بها الى الله والى الحق والى السلام والى النور والى المساواة .

— ٤ —

ومرت قرون وعصور وضل المسلمون الطريق وانحرفوا عن الجادة،وعموا وغووا ، ومكنوا للدخلاء بينهم ، وقطعوا أرحامهم فى الأرض وجهلوا حقيقة رسالتهم والعبء الخطير الذى لابد لهم من حمله . بل جهلوا مبادىء الإسلام نفسه وتصوروه تمتمة وتسابيح وتماثيل ، ثم ظنوا أن عكوفهم على عبادة الأصنام وعلى الباطل والرجس والرذيلة والفساد والجور سوف ينفعهم ،وتخلفوا عن الأمم الصاعدة ، وتوهموا أنهم يستطيعون أن يعيشوا كما كانوا يعيشون ، يعبثون ويلهون بمصائر أنفسهم وجماعاتهم، فأنزل الله بهم الصواعق ، وقامت اسرائيل بينهم ، وانتهبت حقوق شعوب مسلمة كثيرة ، فهل من معتبر : وهل من مدكر ؟

وعد الله الذين آمنوا ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .

آية ٥٥ سورة النور

القرآن كتاب الله

— ١ —

القرآن الكريم كتاب سماوى نزل من السماء على يدى جبريل عليه السلام إلى محمد صلوات الله عليه .

والقرآن كتاب الله الحكيم ، ودستور الإنسانية الخالد ، وصحيفة التحرير والتجديد ، التى أنزلها الله إلى البشرية على فترات من الجهل والضلال والاستبداد والطغيان

وحى أنزله الله عن طريق ملك ملهم على رسوله العربى الأمى محمد بن عبد الله ، داعيا إلى الخير والحق والإخاء والمساواة والحرية ، والكفاح من أجل مثل الحياة الكريمة ، ومن أجل كل ما هو حق وجميل فى الحياة . .

كتاب جمع أصول التطور والتجديد والتقدم ، ودعا إلى القوة فى تواضع ، وإلى العزة فى سلام ، وإلى النور والهدى ، وإلى الرحمة بالفقير والمسكين واليتيم والأرملة والطفل والمرأة والخادم والعامل ، وأوصى بأداء الحقوق ، واحترام العهود ، وحماية الضعفاء ، وأقام أساس حكومات متحضرة شورية ترعى الشعب وتعمل من أجله ، فى عهد مبادىء القيصرية الطاغية ، والكسروية المتجبرة

كتاب دعا إلى التوحيد المطلق ، إلى إله واحد ، لا إله إلا هو وحده مالك الملك وخالق الخلق ، ورازق الناس ، فى وقت كانت عقول الناس لا تستسيغ الدعوة إلى التوحيد ، مما يقصه الله فى كتابه الحكيم عن المشركين فيقول : « أجعل الآلهة إلهاً احداً ، إن هذا الشيء عجاب ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » .

كتاب جعل الإيمان بحياة أخرى أصلا من أصول الدين ، وقرر البعث والحساب والجزاء ، وأن للمتقين الجنة : وللعاصين للنار ..

أى كتاب هو ؟ وأية دعوة حملها ؟ وأى حق دعا إليه ؟ وأى باطل حمل عليه ؟ إنه كتاب الله المعجز الحكيم

— ٢ —

بينما كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يتعبد فى غار حراء من يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم وسنه أربعون سنة وستة شهور وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠م ، إذ نزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى ، التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة هدى ونوراً وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ . قال : ما أنا بقارىء : قال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم »

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم . وأول سورة أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة هى : « والنجم إذا هوى » ، وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هى : « ويل للمطففين :

استمر نزول القرآن بعد البعثة فى مكة قبل هجرة الرسول صلوات الله عليه ، ثم بعد الهجرة والرسول الأكرم بالمدينة حتى توفى إلى رحمة الله عام ١١ هـ — ٦٢٢ م .

وكانت آخر آية نزلت من القرآن الحكيم قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ، حيث نزلت فى حجة الوداع ونزل قبلها بقليل سورة براءة . .

والسور قسمان : مكى ومدنى : فالمكى هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها .

والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة ، تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم ، وهى :

البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والعصر . وما عدا هذه السور وهى اثنتان وتسعون سورة فهو مكى ... أما السور المكية فأظهر موضوعاتها هو :

١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان

٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ، ألا وهى القرآن الكريم .

٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير .

٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء وإصرارها على الضلال وما حل بها من المثلات تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .

٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ، ونبذ الأوهام والأساطير والخرافات ، والتفكير فى نواميس الله فى الكون :

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهو ما يلى :

١ — تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة، لتسير الانسانية إلى حياة كريمة مهذبة تليق بكرامة الانسان خليفة الله فى الأرض ، إلى الفضيلة والخير . والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .

٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة .

٣ — تقرير وحدة الانسانية والأخوة البشرية العامة وتعزيز الصلات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان الأدبية فى الحياة ، وتعزيز شخصية الانسان وإيضاح رسالته ، ورسم الأهداف الكريمة التى يجب أن يسير إليها ويعمل لها فى الحياة .

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام التى تسير مع الانسانية العالية وتوافق مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان.

— ٣ —

هذا هو القرآن المعجزة الكبرى لسيد الأنبياء ، فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور الاسلام الالهى الحكيم ، والذى آمن به كل مسلم ومسلمة، وهو معجزة محمد الباقية على أمد العصور والدهور ، وهو كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونوراً للبشر كافة ، وقضت على هذه الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا والضلال هدى والهمجية مدنية والجهل علماً ومعرفة وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى

السلام والنور ، ونقلت الانسانية من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض إلى حياة فيها رضى وأمن، وطمأنينة وسلام، وحرية وعدل وإخاء ، وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة

قبس من الهدى والنور نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأكرم الرسل وأشرف من فى الوجود، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى ، فتبارك الله رب العالمين .

فهو كتاب إلهى ، ودستور خالد ، منزل من السماء ، هو الذكر الكريم ، الذى نزل هدى ونوراً ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

يقول دافيد بورت : « القرآن دستور اجتماعى تجارى مدنى حربى قضائى، وهو فوق ذلك كله قانون سماوى عظيم » . والقرآن الكريم يحقق كل أغراض الحكومة الدستورية الصالحة ، فقد فرض على الحاكم أن يستشير المسلمين ، ويرجع إلى رأيهم ، « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، وألزم الحاكم

بالعدل فى رعيته ، فالامام راع ومسئول عن رعيته ، ولم يجعل أى امتياز لطبقة الحاكمين على طبقة المحكومين .

— ٤ —

ومبادىء محمد ودعوته ورسالته إن هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد والكتاب الحى الباقى والقانون السماوى الأعظم : القرآن الكريم ، معجزة محمد الخالدة الباقية على وجه الزمان . .

وتقرأ فى القرآن فتجد حربا لا هوادة فيها على الشرك والوثنية ، وتحريراً للعقل الإنسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وإيماناً لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة ، وغرساً للفضائل الانسانية ، والمثل العليا فى نفوس الناس كافة ، ومحاربة للرذائل والمنكرات والشرور والفوضى الاجتماعية فى كل شىء وكل ناحية .

وتجد فيه إيقاظا للضمائر ، وإحياء للنفوس ، وبعثاً للفكر البشرى من رقدته .

وتجد فيه ثورة على الطغيان والاستبداد ، وعلى التعصب للافكار الخاطئة ، والمبادىء الضالة ، والعصبيات الجائرة .

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً . فلافرق بين جنس وجنس . ولا فضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة أو إنسان على إنسان ، إلا بالأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة .

وتقوى الله وطاعته . الناس كلهم من أصل واحد وأب واحد ، « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وهكذا قبر الإسلام ورسوله الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك « الانسانية والعالمية » بأوسع معانيها . ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الاسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

ووضح القرآن صلة الإنسان بربه . وشرع له العبادات والطاعات التى تقربه الى الله ؟ كما وضع النظم المثلى التى تسير عليها الأسرة والمجتمع والأمـــة والانسانية لخير الحياة والحضارة والبشرية والناس كافة .

— ٥ —

ولقد بذر القرآن الكريم بدعواته المثلى العالية بذور الحرية والتعاون والزمالة الانسانية والمساواة والاخاء : ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ ، وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ينعمون بعدلها وحكمها ؟ ويغذون أنفسهم بمبادئها وأفكارها وثقافتها . ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

فالقرآن دعوة إلى التوحيد والخير والحق ، وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل مايسعد الناس فى دينهم ودنياهم : من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه كامل إلى المثل العليا . . . نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحى الصادق ، والدستور العظيم ، فكان فى أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لايدانيه بيان . ولا يشابهه أو يقاربه ماكان عند العرب من : شعر ، وخطب ومحاورات ، ومفاخرات ومنافرات ووصايا ومثل ، وحكمة ، وكهانة . وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان ، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ؛ وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب فى الصحراء ، وعجز الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، ففقدوا مواهب البلاغة والقول ، وذهبت كل بلاغة فى تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره . ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين. فأخذوا يحاربون الحق بالاوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام ، فقالوا فى القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهى أساطير الاولين ، ولونشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا إختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقـــوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(١) » ، وقال تعالى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »(٢) وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ، إن كانو صادقين »(٣) ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً » (٤) ، فسجل عجز البشر كافة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن ـ ولو تظاهروا ـ الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم . لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ، الملك القادر والمدبر الحكيم الله جل جلاله ، وعلت قدرته ، وعظمت حكمته .. ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً

(١) البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ ــ وهى مدنية (٢) هود : آية ١٣ و ١٤ ــ وهى مكية
(٣) الطور : ٣٣ و ٣٤ — وهى مكية (٤) الاسراء : ٨٨ — وهى مكية

وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين » .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشرة سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور . واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٦ —

ثم امتدت الأجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صداه

فى المشارق والمغارب ، فلم نسمع أن رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً ويحبر رسائل أو مقالات، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء ، ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، مايعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ وهل بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونه دستورهم فى الحياة ، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية؟ وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأ عليه دولة ، وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم؟ وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكتب ، وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . .

كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب ، فوق آثاره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى حياه العالم والإنسانية كافة ؟

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون إيماناً صادقا ، بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شىء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ; وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين ، الذى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، وستمضى وتتوالى الأجيال، وهو يضىء كما يضىء الفجر ويزخر كما يزخر البحر ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث ، كتاباً متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » . وذلك كله دليل كون القرآن من عند الله ، وكون محمد رسولا من السماء .



القرآن ناموس البشرية

— ١ —

طبع القرآن المسلمين الأولين على مكارم الخلق ، ونبل النفس، وقوة الإيمان وجلال التضحية ، وجمال الإيثار ، وبث فيهم الشعور بالمسئولية ، ونأى بهم عن الرذائل والمنكرات والشبهات ، وسار بهم إلى طاعة الله ومرضاته ، وحبب إليهم العدل والإنصاف ، حتى لقد قتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد خائن غادر لئيم فتكالب المسلمين على القاتل ، فقال لهم عمر وهو فى الرمق الأخير :أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه، فإن أعش فأنا ولى دمه ، إما عفوت وإما قصصت ، وإن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . . فلم يصيخوا لكلامه فنادى فى أهله : يابنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضا ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

هكذا كان المسلمون الأولون ، ولو وازنت بين ذلك

التسامح العظيم ، والعدل الحكيم ، وبين ما يفعله الحكام بالمحكومين في الغرب وفي روسيا حين يقتل منهم واحد ، لهالك الفرق بين عدالة الإسلام والشرائع الوضعية الحديثة ولقد مجد المؤتمر الدولي الذي اجتمع في لاهاي منذ أعوام الشريعة الإسلامية التي قامت على أصول القرآن وأشاد بفضلها فسجل في قراراته أن الشريعة الإسلامية ، تحمل العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن ،

هدى القرآن الانسانية كلها بما أذاعه من مبادىء سامية ، حاربت الفوضى والطغيان والوحشية والظلم والرق ونشرت في العالم كله راية الأمان والسلام والإخاء والحرية والمساواة والديمقراطية والتعاون والمحبة بين الناس كافة ... اعترف القرآن للمرأة بحريتها وحقها في الحياة ومساواتها للرجل في شئون الدين والمال والحقوق والواجبات ، واعترف بحرية الإنسان وكرامته في الحياة ، وبحرية الجماعات والأمم والشعوب ، وحارب العصبية وحمية الجاهلية حربا لا هوادة فيها ، وساوى بين الناس كافة ، وجعل الناس إخوة ، تجمعهم صلات قوية في الله .. يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وحرم الخمر والزنا والبغى والعدوان والظلم والسرقة ونهب أموال الناس بالباطل والمنكرات والرذائل ما ظهر منها وما بطن ، والميتة والدم ولحم

الخنزير . وأعلن حرية الرأى والعقيدة ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من البغى »

ورفع علم الشورى والديمقراطية والتعاون فى خدمة المجتمع والسلام والإنسانية .

وحارب الترف الذى هو ألد أعداء الحضارة والتقدم، والذى سجل بيتان خطره على كيان الأمم بعد هزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية بيد الألمان فقال: «لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية » . . .

وحافظ الاسلام على كرامة الأسرة وعفاف المرأة وشرفها ، فأقام الأسرة على أسس سليمة قوية لا يعتريها وهن أو انحلال . . وحث على الايثار، وأن ينصب الفرد نفسه فى خدمة الفرد والجماعة . وأتى بأحدث المعارف فى خلق العالم وشئون الاجتماع وقوانين الصحة ونظم الاقتصاد والسياسة . . وحرر الفكر الانسانى من جموده ، وكشف مجاهل التاريخ وأحداثه ، ووضع أصول المدنية الفاضلة ، وحث على العلم والمعرفة وهدم الشرك والوثنية ، والأهواء والأضاليل والأوهام الفاسدة والأساطير الكاذبة . ووضع أصول العبادات والمعاملات الحسنة بين الناس ، وشرع الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الطهارة والنظافة وجمال

المظهر وكمال المخبر .

وبعث الطموح والأمل والحياة فى النفوس الانسانية ،لتعمل وتكد فى سبيل بناء الحضارة ، وعمران الدنيا .

وغرس الزهد والقناع وحب الخير والحق والعدل والانصاف فى كل قلب .

فهل وراء ذلك غاية لطامح ، وأمل لإنسان أو مصلح ؟

حقا أن القرآن دستور الإسلام ، وهادى الإنسانية الامين ، ومنقذها من الضلال والظلام .

— ٢ —

يقول الدكتور موريس الفرنسى :

« لقد قلقت نفسى ؛واضطربت حواسى لقول المسيو رينان» : إن القرآن غير فصيح ولا بليغ ، إذ لو جاز لامرىء غير مسلم أن يرتاب فى صدق القرآن وصحة دعواه فلا يجوز له أن يرتاب فى صحة عبارته ، وكونه فى الذروة .. انه أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبنى البشر ، فهو قد تضمن أناشيد لإسعادهم خيرا من أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأض ، وتمجيد الله سبحانه . . إن مزايا القرآن الأولية . وأركانه الأساسية إنماهى فى صحته وحقيقة مبانيه ، وأنه كتاب لا ريب فيه .

ويقول هنرى دى كاسترى : لو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار، ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هـــذا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله .

ويقول جيبسون :

القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى، ليس لأصول الدين فحسب بل وللأحكام الجنائية والمدنية، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الانسانى ، وترتيب شئونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الاسلامى ، فهو قانون شامـــل للقوانين المدنية والحربية والقضائية والجنائية .

ويقول بورث سميث :

من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من أعظم الأمور ، وجلائل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة وامبراطورية وديانة .. ومع أنه أمى ، فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ، ودستور للشرائع والصلاة والدين فى آن واحد، وهو

كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية ، وحقا إنه لمعجزة .

ويقول جوستاف لوبون :

إن القرآن، وما اشتق منه هو الفطرة بحيث يتلاءم مع حاجات الشعوب الأولية ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام لا يعوقه عائق .

وقال جوته :

إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه أولية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم، متمسكين بعاداتهم القديمة .

وقال كارليل :

إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والاخلاص ، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة .

ويقول مانويل كنج من محاضرة له :

إذا كان فى عالم الإلهام أمر يدعى وحيا، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يشك فى أن القرآن كتاب منزل .

وقال سديو فى كتاب «تاريخ العرب» :

القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .

وقال الفيلسوف الفرنسى آلكسى لوزاون :

خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الاسس الإسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

وقال الكاتب الأمريكى واشنغطن ايريونج :

يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

ويقول لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور :

« أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعد ما وعينا تاريخـــه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين : كل أولئك من نفاق العقائد . وليس للنفاق قوة العقيدة . وليس للكذب قوة الصدق . وإذا كانت قوة الصعود والرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق منه القذيفة . فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث ، فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكر السامية العالية ، التى تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمنا طويلا وتمشى فى الحياة أبدا . وهى لاريب فكرة

قوية صدرت عن وجدان قوى . ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص . وعلها الأكبر الحق والصدق .ولا بد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن، ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده . ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته .وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان . وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته فى وسط أعدائه وخصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها . وتقبله سخرية الساخرين . وهزؤه بهزء الهازئين . وحميته فى نشر رسالته . وتوافره على السعى فى اظهار دعوته . وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه . ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر . وإعلاء كلمته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم وأناته وصبره حتى يحرز النصر ؟ وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الإسلامية ، لا فتح الدولة وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ؛ ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره . مع نجاح دينه بعد موته . . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين . بل كان وراء عقيدة صادقة ويقين قوى فى قلبه . وهذا اليقين الذى لازمه هوالذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة

وحجة قائمة ومبدأ مزدوجاً . وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله ؟ والثانية تنفى ما ألصق الوثنيون به . الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة، والاخرى فتحت طريقا جديداً إلى الفكر ومهدت سبيلا للنظر ».

« فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ، ورواد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب . ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الارض . وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد .. ذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ »

الفصل الرابع

نشأة الإسلام

الإسلام شريعة سماوية ، نزلت من السماء إلى الأرض ، على لسان ملك الوحى جبريل عليه السلام،إلى محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، ينطق بهاالقرآن الكريم ، والتعاليم التى أوحى اللهجبريل بها ، فشرحها الرسول الكريم فى أحاديثه النبوية الشريفة . وليس نزول هذه الرسالة بدعابين الرسالات ، فكما أوحى إلى موسى وعيسى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ! شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى »

ولقد رسفت الإنسانية فى أغلال ظالمة من الاستعباد خلال الحضارات القديمة التى غمرت موجتها العاتية الحياة البشرية ، قبل أن تسطع شمس الاسلام المشرقة ، وينبثق نوره ، وتشابهت جميع الحضارات التى استظلت بها الإنسانية فى ذلك العهد السحيق ، فى أفكارها ومبادئها وغاياتها ، فقامت جميعا على أسس الطغيان والديكتاتورية والروح المادىالبعيد عن السمو الانسانى المنشود، وكانت غايتها المشتركة مجد الأشخاص لامجد الشعوب ، ورفاهية

فرد وإن شقيت به أمة، وكان كل ماتطمح إليه ، وتفكر فيه استعباد الناس وتسخيرهم فى سبيل تحقيق مايصبو إليه الحاكمون من عظمة وكبرياء ، ومايشدونه من روعة المجد ومظاهر السلطان وجحدت جميع هذه الحضارات حقوق الأفراد وحرياتهم وناوأت حياة الديمقراطية وحريات الشعوب ، وتنكرت لكل ماتقدسه الانسانية المهذبة من من عدالة وإخاء ومساواة ، ثم خلعت على هذا الاستبداد الجائر صورا مزيفة من القداسة والحق الالهى المزعوم وأن الحاكم يتلقى الحكم هبة من السماء ونفحة من العناية الإلهية ، وليس للشعوب رأى لديه ، ولا شخصية فى رأيه . وماهم إلا عبيد مسخرون ، فسكن لهذا الطغيان الثائرون، وآمن به الحائرون ،وصار عقيدة مع العقيدة ، وسورة من كتاب البشر المضللة البائسة .

وبزغ النور الالهى فى أفق الحياة البشرية بين هذه الظلمات القائمة فترات قصيرة ، ليبدد ظلام الاستعباد السياسى والرق الفكرى والطغيان الاجتماعى . بيد أنه لم ينفذ إلى أعماقها ، ولم يتغلغل فى طواياها ، واجتمعت شياطين الضلالة وأعداء الانسانية على أن يحولوا بينه وبين قلوب الناس وعقولهم ، فلم يرن إليه بصر ، ولم يخفق به فؤاد ، ولم ترفع له الشعوب رأساً .

وعلى حين غفلة نزل الوحى إلى الأرض من جديد ، يبلغ الرسالة ، وينفث فى روع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه روح

القوة والبطولة ، ويدعوهم إلى التضحية والجهاد، لتحرير الانسانية من أغلالها ، والسمو بها إلى حياة الحرية والديمقراطية والسلام ، فأخذ محمد وأصحابه يدعون للدين الجديد ، ويبشرون الناس بحياة بشرية أخرى ، ويضعون أساس الحياة الانسانية الجديدة .

دعا محمد صلوات الله عليه إلى وحدة الانسانية ، أممها وجماعاتها ، وإلى محو جميع الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة التى فرقت بين الانسان والانسان وبين الجماعة والجماعة وبين الأمة والأمة ، وإلى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات . وأهدر جميع الموازين التى ألف الناس تقدير قيم الأشخاص على أساسها من الحسب والجاه والمال إلا ميزانا واحداً هو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق الكريم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويقول الرسول الكريم « يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ، ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وأنكر عليه زعماء قريش هذا المبدأ الكريم ، قالوا : كيف نجلس إليك يا محمد وانت تجلس إلى مثل بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وعمار وسواهم

من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم عنك ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك . فأبى رسول الله صلوات الله عليه . فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فكاد أن يجيب رغبتهم ، فنزل عليه الوحى من السماء يرتل فى أذنه الكريمة هذه الآيات الكريمة « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

كفل الاسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشرى فى جميع صوره وشتى مظاهره ، حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من الرعية : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » ، فحرر الاسلام العبيد المسترقين إلا من كان مأسوراً فى حرب شنها أعداء الاسلام ليطفئوا بها نور الله ، ووضع الحدود لمعاملة هؤلاء الأرقاء ودعا إلى تحريرهم من الرق ؛ كما حرر المرأة من عبودية الرجل ، وحرر المجتمع من ديكتاتورية الزعماء والطغاة ، وحرر الشعب من جور الرأسماليين المستبدين ، فأحل البيع وحرم الربا ، ودعا إلى أسمى المعاملات وأنبلها .

وكانت أول كلمة فى دين الاسلام هى الدعوة إلى وحدة العقيدة وألا يشرك الناس بالله شيئاً ، وبذلك رفع كرامة الانسانية من أن تمتهن بالسجود لغير الخالق العظيم ، ورفع كرامة الناس من أن يذلوا للطغيان السياسى الذى يسبغ عليه أصحابه لونا زاهيا من القداسة وتأييد العناية الالهية ، « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ؟ »

ووضع أساس الديمقراطية السامية ، ومبدأ الشورى الكريم ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . وقرر مبدأ النصيحة لأولى الأمر . « الدين النصيحة : لله ولرسوله ولأولى الأمر » ، وألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق « لا طاعة لمخلوق فى معصيته الخالق » . هذا هو الإسلام فى جوهره وحقيقته ، لا كما يصوره الملحدون والماديون ، وكذب الماركسيون فى افترائهم عليه كذباً مبيناً .

هذا هو الإسلام

الإسلام اليوم مجهول من جماهير المسلمين ، غريب بينهم ، لا يألفهم ولا يألفونه ، يرتلون اسمه فى المحافل ترتيلا وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه .

الإسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى وأكبر ثورة بشرية ، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ومن المواءمة لروح الإنسانية ونظريات الاجتماع ومذاهب التفكير الحديث ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان . هذا الدين السماوى الخالد هو الذى ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهريا ويحرمون أنفسهم من الإفاده بتعاليمه بل ويجاهر بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود . كذبوا وأيم الله فالاسلام لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الإنسانى والعز والكرامة والمجد ... وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن فهمت أصول الإسلام واقتبست من شريعته فى الاصلاح ، بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة ..

وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق ،

وأصول البحث والتفكير، وسبق الديكارتيين إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل . كما سبق بيكون إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، « ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حداً لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف. وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للاشياء التى هى الآن أساس المدنية الغربية .

يفاخرنا العالم الغربى بمجانية التعليم التى سبق تعميمها منذ عهد بعيد ، وأنتم تعلمون أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم بها ، بل وتزيد على ذلك فتصرف لطلابها الغذاء والكساء ، وتهيىء لهم السكنى فى مساكن مدرسية خاصة .

ويفاخرنا بمجانية العلاج وهو نظام سبق إليه المسلمون فى العصور القديمة .

ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عمموه فى بلادهم ، مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقد كان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل؛ كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة ، وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول : والله ما أحد أحق بهذا

المال من أحد وما أنا أحق به من أحد . . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والإرث ودعوته إلى الإحسان وفرضه حقا معلوما للفقراء فى أموال الأغنياء .

ويفاخرنا بنظامه الديمقراطى . مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية التى كان دستورها القرآن . والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد . على السواء . وصار الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى الأرض وبأنه فوق القانون والمسئوليات ولعلكم على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : الإمام راع ومسئول عن رعيته . ولعلكم قرأتم بامعان قول عمر : إن رأيتمونى على حق فأطيعونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى . وقوله لعمرو بن العاص : متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ . وقوله : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وغير ذلك مما يعد دستوراً خالداً فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين وأخوة الناس جميعاً فى الإنسانية ، ولم يجعل لعربى على عجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح وألغى الفروق

بين الطبقات والعناصر والألوان والأجناس والشعوب وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور والحق والخير والمعرفة . . الدين واحد والناس جميعاً إخوة يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله .

ولا يزال الغرب يدعى بأنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة منذ بدء الثورة الفرنسية حتى اليوم .

وما أشد جرأة هؤلاء وهؤلاء على الحقائق فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها .

وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل ، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان . وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والامن وحقه فى الملكية وفى الكرامة الإنسانية وفى تكوين الأسرة وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة . ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها وإلى الإخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة والمساواة الشاملة والاشتراكية والعدالة . وحمى أتباع الأديان الأخرى وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم وما عليهم من واجبات وحقوق .

لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية لانحطاط

ما يمارسونه من المهن . . فأين هذا من سماحة الإسلام وجلاله وسمو مبادئه ، الذى ساوى بين العامل والأمير والغنى والفقير والكبير والصغير ؟ .

وأوربا المتمدنة اليوم لا ترى بأساً فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات والحجر على الحريات فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض .. فأين هذا من عدالة الإسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صوره ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للمسلمين الحاكمين ؟ .

والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم لا ترى أيضاً ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب فى حروب منظمة بعجز العقل عن تصور هولها وفظاعتها .. فأين هذا من شريعة الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حقوق الإنسان حتى فى الحروب وأوصت بالمدنيين المسالمين خيراً ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب ، حتى لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم جنده فقال لهم : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا . اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانياً ولا منعزلا

بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء ».

لقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : أيها الناس إن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد .. ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر وهو خليفة لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى فى الدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب .

وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبد الله : والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ؛ وأن يغضب « على » لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

فضلا عن تحريم الاسلام للنظم الاقتصادية الجائرة من ربا واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل ، وقاعدة الاقتصاد فيه : فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ؛ كما أن قاعدة

الاسلام فى أصول الاجتماع قوله (ص) : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. وهو بحق دين اشتراكى عادل بما شرعه من زكاة وإحسان ووصية ووقف ، وبجعله بيت المال فى خدمة المسلمين عامة ومساعدتهم على الحياة .

إن مفاخر الاسلام فى احترامه لحقوق الانسان وتأييده وحمايتها لهـا ، وفى وضعه لاصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى إيقاظه الروح الانسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالارشاد والتقدير ، حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ونقتبس من أصولها ما يحيى الروح ويوقظ العزيمة وينبه راقد الفكر فى شتى ارجاء العالم الاسلامى .

إن الخير كل الخير فى أن ينتبه الشرق الراقد إلى أصول دعوة الاسلام التى جهلها وتناساها وتركها ، وإنه لحرى بالمسلمين جميعاً أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح ، أو تعـــديل ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحاً ، ليسعد الناس وتستقر الجماعات ، وتهدأ الفتن وتصحح الأوضاع ..



الإسلام كما يراه المفكرون

قال كاين تيلر فى خطاب جامع ألقاه بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٨٧ ما نصه :

« إن الإسلام قد سبق سواه من الأديان بمراحل شاسعة ، فإنها فى بعض الجهات أخذت فى التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامى ، فى حين أن الوسائل التى تستعملها لتنصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشباك التى تنصبها لهم تنقطع حبالها . . والدين الإسلامى يمتد الآن من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت قدمه فى إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة » .

وقال الورد استانلى وقد سئل : لم أسلمت وقد كنت مغرقا فى دينك ؟ :

« أو أغمط الفضل أهله ، أو أجحد الله وعلمه ؟ أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام ، وقدرته فى نفسى حق قدره . وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلا .. أنا مسلم . أهزأ

بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المـــذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » .

وقال توماس كارليل :

« ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية . وكل ما لم يكن بحق ، كأنه حطب جاف أكلته نار الإسلام فذهب ، والنار لم تذهب . . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة ، منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فاذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وشمل نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة ورونق الحق والهـــدى على نصف المعمورة » .

وقال اللورد هدلى :

« إن فى انجلترا ألوفاً من الأفراد المثقفين ، وهم مسلمون فى قلوبهم ، وإن لم يعلنوا ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام ، فكانوا يجيبوننى : إذا كان هذا هو دينك فإنا إذن مسلمون ، لأن هذا ما نعتقده وما نفكر فيه » .

وقال فارس الخورى بك أحد وزراء سوريا ، من خطبة له ، فى إحدى الحفلات العظيمة ، التى أقيمت بدمشق ، عام ١٩٣٥ ، لإحياء ذكرى مولد محمد صلوات الله عليه[1] . وذلك فى رسول الإسلام ، وفى مبادئه الخالدة :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أول الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليه باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ،مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . إن محمداً الذى تحتفلون به وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الأرض كافة .

---

(١) نقلا عن جريدة المقطم عدد ١٩٣٥/٦/٢٧ تحت عنوان : « وزير مسيحى يصف الشريعة الإسلامية »

ثورة الاسلام

— ١ —

فتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفراً خالداً حافلا : بأروع جهاد عرفته الإنسانية وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء ، وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا .. ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان . . واستعباد القـــوى للضعيف . . . ثورة أنقذت العالم من حياته الذليلة البدائية. وأحالت ظلام الحياة نورا ،وخوفها أمنا وسلاما. وظلمها عدلا وإنصافاً وحرية . مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين . ودعاة الإصلاح .

ومن أولى من محمد بن عبدالله صلوات الله عليه بأن يرفع فى العالم منارة السلام . وراية المدنية ، وأن يصل الارض بالسماء . ويسعى بالإنسان ليبلغ ما كان ينتظره من حياة زاهرة ، وحرية نادرة ، وحضارة باهرة ، فيها الأمن والأمل والاطمئنان والرجاء ؟ ..

لقد كانت رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أول إعلان عالمى لحقوق الإنسان ، وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، وإصلاحا عاما شمل جميع ميادين الإصلاح .

— ٢ —

جاء الاسلام والعرب قبائل ممزقة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ، ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة ... فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدا ، وحياة كريمة مهذبة ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا .

اعترف الاسلام للانسان : بحريته واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، وجعله حرا طليقاً من كل قيد ، إلا من الخضوع لدين الله ، وللحاكم الأعلى الذى يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس ... فرفع بذلك من كرامة الانسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والإخاء ، التى هى أسباب وثيقة للمدنية والحضارة .

ونظم الأسرة على أسس اجتماعية سليمة فشرع الزواج وجعله رباطا مقدسا بين الرجل والمرأة ، وجعل الأسرة هى الوحدة الصغيرة التى يتكون منها المجتمع والشعب ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها . وحرم العلاقات الأثيمة والبغاء ، لحفظ الأنساب ، ودعم كيان الأسرة ... ورفع من شأن المرأة ، وجعلها شريكة الرجل فى الحياة وفرض نفقتها ونفقة الأولاد على الزوج ، وحتم عليهما حسن

التعهد للأبناء ، والقيام بتربيتهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، حتى يبلغوا مبلغ الشباب .

دعا الإسلام إلى أن يكون الناس إخوة متحابين فى الحياة ، وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وحرم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين ، والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله . وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية ، التى تزيد فى قوة المجتمع ووحدته ، كالحج والزكاة وصلاة الجماعة والإحسان . . وحارب الرذائل الاجتماعية ، والعادات الفاسدة والتقاليد الجامدة ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . . وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم وحرياتهم وأباح الطيبات من الرزق ، ومكاسب الانسان الشريفة . وأيقظ الضمير وهذبه وجعله رقيباً على أعمال الانسان .

وبهذا أسس النهضة العالمية الكبرى التى يحيا الغرب والشرق فى ظلالها .



رسالة سماوية

رسالة جديدة حقاً ، غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة وسمت بالانسانية التى كان يهوى بها الجهل والفاقة والذل والاستبداد ، وارتفعت بكرامة الفرد والمجتمع والأمم إلى المكان اللائق بها ، حيث السمو فى العقيدة ، والعظمة فى النظام وروح الجماعة ، ووأدت الكثير من المبادىء الضالة الضارة ، سواء فى العقيدة أم فى التفكير أم فى الاجتماع ؛ وبعثت شعوراً جديداً فى العالم كافة ، يقوم على إيمان وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الانسانية المشتركة ، وقادت العالم إلى مجال الطهر والفضيلة ، والشرف والكرامة والصفاء الروحى ، والطمأنينة النفسية ، والثقة بأن الإنسان خليفة الله فى الأرض ، وأن عليه واجباً أدبيا محتوماً : أن ينشر الأمن والسلام والحب والرحمة والتعاون والاحسان بين الناس جميعاً ، وأن يعمل على النهوض بالحياة والبشرية ليسعد الفرد وتحيا الجماعة وترقى الأمة وتتقدم الانسانية ، لأنه مسئول عن ذلك كله أمام إلهه خالق الأرض والسموات .

وما تكون هذه الرسالة غير رسالة محمد صلوات الله عليه ، رسالة الايمان ، ودعوة القرآن التى أشرقت بنورها الأرض ، واهتزت لعظمتها السماء ، وكانت حداً فاصلا بين عهود بغيضة

من الهمجية والوحشية والظلام والاستعباد وعصور كريمة سمتها الايمان والعلم والحضارة وتقديس كل ما هو حق وخير وجميل .

لقد كان بدء نزول هذه الرسالة حدثا تاريخيا عالميا دوى صداه فى الآفاق ، فبدأ نزول القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، نزل للتحرير الانسانى العام ، فقد حرر الانسان من الأوهام ، والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ، والبشرية من الخرافات والضلالات والجمود ومعاداة النظام وكراهية التقدم ومحاربة الفضائل والأخلاق الكريمة .

وأخذت روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، ومبادىء الطغيان الدينى والاجتماعى والمادى تتلاشى لتقوم على أشلائها مبادىء الايمان بالعدالة والمساواة وحريات الناس وكرامتهم .

رسالة جديدة هى رسالة الايمان ، والروح ، والانسانية الكريمة . فلينهض قادتها ودعاتها لنشرها من جديد ، بعد أن شقيت الحياة والأحياء برسالات الكفر والطغيان والمادية ، والجشع المادى : الذى بعث الفوضى . وقضى على النظام والأمن والسلام ، وأشعل الحرب فى الأرض ، وأرث العداوات بين الأمم . . .

اصول الاسلام

شريعة الإسلام هى العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس ، وهى الايثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد . وهى الألم لشقاء الناس وبذل مافى اليد ومساعدة كل ذى محتاج .. والاشتراكية فيها اشتراكية يرعاها الله ، ويدعو إليها الضمير الانسانى . وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية الصادقة ، ومن الناحية الاقتصادية تهدف إلى مقاومة الاستغلال فى شتى صوره ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديمقراطية والشورى وحرية الرأى والمساواة والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق يجب أن تؤدى ، ويجب على الدولة أن تراقب أداءها ، ومن حيث الوسائل تنكر صراع الطبقات والثورة ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس ، وتحمى حقوق الانسان والمرأة والعامل ، وتعمل للاصلاح العام والتعاون بين الناس ، وتقرر التأمين الاجتماعى للفقراء والمعوزين ، وتفرض الزكاة ضريبة يخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة الفقراء .

وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره ، وترفع من شأن العامل ، وتسوى بينه وبين صاحب العمل ، وتحض على إيجاده للعاطلين ، بما تشرعه من نظم اقتصادية سليمة : كالمزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك ، وتحترم حقوق العامل كلها وتوجب أداءها له كاملة غير منقوصة ، وتحرم الترف والبذخ والإسراف والتبذير ، وتحد من غلواء الرأسمالية ، وتكره التفاوت المادى بين الناس ، بدعوتها للأغنياء أن يرفعوا الفقراء إلى مستواهم ويأخذوا بأيديهم ، ولقد آخى رسول الله بين الأنصار والمهاجرين ، ووزع فىء بنى الضمير على المهاجرين الفقراء ، ويقول الله تعـــالى : ماأفاء الله على رسوله من أهـل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، وتوصى اشتراكية الاسلام بالصدقة والإحسان ، وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب ، وتشرع نظام الوقف والوصية والقرض والوديعة والإعارة والهبة . وتقرر فريضة الميراث ، وتنهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن الطمع فيما فى أيدى الناس ، وتجعل الزوج مسئولا عن زوجته ، والأب مسئولا عن ابنته ، وتفرض المهر ، وتقرر للمرأة جميع حرياتها المالية ، وتحافظ على الملكية

الخاصـــة ، وتوصى بالتكافل الاجتماعى بين المسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ، وقال ابن حزم : « فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولافىء سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » ، وأفتى أيضا بانه إذا مات رجل جوعا فى بلد اعتبر أهله قتلة وأخذت منهم دية القتل . وتسلم اشتراكية الاسلام بمبدأ الضرائب التصاعدية ، فالجزية على الظاهر الغنى فى السنة ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط نصفها ، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها ، ولا تؤخذ من فقير غير قادر على الكسب ، ولا من صبى وامرأة ومريض مزمن المرض وشيخ كبير السن وأعمى ولا من رجال الدين الذميين . . ولما وقعت المجاعة عام الرمادة لم يرسل عمر عمال الزكاة ، فلما ارتفع القحط أخذ من القادر زكاة العام التالى وأعفى غيرهم وأمر أن ترد على هؤلاء إحدى الحصتين . ورعى الاسلام صاحب الأسرة ، فقد جعل الرسول للأعزب سهما من الغنيمة وللمتزوج سهمين ، ومنع على بن أبى طالب الحجر على الضروريات وفاء للضريبة كما منع جبايتها بالقوة ، فقال لأحد عماله :

« إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة ولا رزقا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن أحداً منهم سوطا واحداً فى درهم ولا تقمعه على رجله فى طلب درهم » ... ومصادر المال للدولة هى الزكاة والعشر والخراج والجزية والغنائم والهبات وموارد الثروة التى تستخرج من جوف الأرض وسواها

وتقرر الاشتراكية الاسلامية مبدأ « من أين لك هذا » ، وقد عمل عمر بهذا المبدأ ، فصادر جميع الأموال التى يشتبه فى حق ملكيتها ، وضمها إلى بيت المال ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ، رضوان الله عليهما . وأبى عمر بن الخطاب أن يقسم أرض العراق المفتوحة بين الفاتحين حتى تبقى ملكا عاما للمسلمين . على أنه إذا نزل قحط بالمسلمين لم يبق لصاحب المال حق فى الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء .

هذه هى الاشتراكية باصدق معانيها ، وأوسع مدلولاتها ، وهى لون من ألوان الاصلاح الذى جاء به الاسلام الكريم ، وشتان بين هذه المبادىء الانسانية السمحة وبين أرقى المبادىء العالمية الراهنة ، فإذا وازنا بين منهج الاسلام الاشتراكى هذا وبين الشيوعية نفسها هالنا الفرق ، وتملكنا العجب والدهشة . . . يستخدم لينين وستالين اصطلاحى الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد ، أما كارل

ماركس فقد أطلق على نظام الانتاج الموزع - مع توزيع حصيلته وفقا لنوع العمل وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية ولم يطلق عليه الاشتراكية . وأطلق على النظام نفسه الذى توزع حصيلته وفقا لحاجات الأفراد المرحلة العليا للشيوعية . . إن الإشتراكية اقتصاديا تنادى بالملكية لأدوات الانتاج ، مع اعترافها بدور النقود والأجور ، شعارها « من كل وفقا لمقدرته إلى كل وفقا للعمل المنجز . . أما الشيوعية نظريا فتستخدم الطاقة الانتاجية إلى أقصى حدودها مما ينتج عنه وفرة الإنتاج وفرة تتيح تطبيق مبدأ « من كل وفقا لمقدرته وإلى كل وفقا لحاجته » ، بفضل سيادة الملكية المشتركة لمصادر الإنتاج ، فالشيوعية تقول بحصول الفرد على نصيب فى الانتاج طبقا لحاجته ، والاشتراكية تجعل ما يخص الفرد جزاء على الخدمات التى يؤديها .. وينكر الاشتراكيون نظرية « صراع الطبقات » وفكرة « الثورة » كوسيلة لتحقيق مبادئهم ، وتؤمن بأن وسائلها مستمدة من طبيعة النظام الديمقراطى ، من حيث يؤمن الشيوعيون بهذه النظريات ، وبمبدأ إلغاء الملكية الفردية وتأميم جميع المشروعات والمؤسسات ، ووضع أموال الأمة كلها فى يد الحكومة وبالقضاء على التجارة الداخلية ، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجيات معيشته . ويطبق نظام الأجور الذى وضعه لينين ، ولا يسمح للأفراد مطلقا بالتجارة

الخارجية ، ولكن الدولة هى التى تحتكرها . فتحتكر الحكومة فى المجتمع الشيوعى التجارة داخلية أو خارجية ، وتهيمن على النظامين النقدى والمصرفى ؛ وفى الزراعة يقوم نظام الملكية المشتركة ، بمنح الفلاحين الأرض على سبيل الإجارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاونى ، ويتكون دخل الفلاحين من إيرادات المزرعة لامن الأجور التى تمنحها الدولة لهم بعكس ما تفعل مع عمال الصناعة ، والنقود لا وجود لها فى المجتمع الشيوعى النظرى ، والأجور تقيد فى بطاقة العمل ويصرف مايعادلها سلعا وخدمات ، والعمل وحده له حق الحصول على دخل ، وتسود الملكية المشتركة كافة المشروعات الصناعية، وتدير الحكومة شئونها .. وقد ألغى ستالين التجارة الداخلية ، وعمم استعمال البطاقات للشعب ، وعين مشرفين على الصناع والعمال وجرد البوليس بقوة للاستيلاء على الأراضى ..

هذا هو لباب منهج الشيوعية الاقتصادى ، ولكنها نظريا تختلف عن السياسة المطبقة فى المجتمعات الشوعية ، فليس توزيع الأجور فى روسيا الآن وفقا للحاجة ولكن وفقا للانتاج، وقضت المادة ١٢ من الدستور الجديد على أن الأجر بحسب العمل ، وذلك بعد أن كان لينين من عام ١٩١٧ قد نفذ مبدأ الأجور المتساوية بين العمال ، وأسفر تطبيقه عن أضرار لا حد له بالإنتاج والصناعة ، فقرر ستالين عام ١٩٣١ نظام الأجور المتفاوتة لكى يزيد الإنتاج .

فضلا عن أن تأميم الصناعة وامتلاك الدولة لكافة المرافق العامة ونظام الملكية المشتركة جعل كافة السكان يعتمدون فى معاشهم على الدولة مباشرة أو عن طريق غير مباشر . ومن ثم انعدم الحرص على النبوغ ، والشعور بلذة التملك ، وانحطت معنويات الناس فى ظلال هذا النظام .

فشتان بين اشتراكية الإسلام السمحة الرحيمة ، وبين اشتراكية قوامها الطغيان والاستبداد والبطش وصراع الطبقات والثورة على الديمقراطية وعلى سنن الله فى الحياة



الفصل الخامس

دين الحضارة

قامت على مبادىء الاسلام دولة عظيمة ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة هى نواة الحضارة الأوربية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل حضارات الأمم القديمة إلى العالم الحديث ، ولولا مجهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها .

قامت هذه الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية وعلى الديمقراطية النبيلة التى بلغت على يد الفاروق عمر بن الخطاب أسمى ما تبلغه الانسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر ومبادىء محمد ودعوته ورسالته ما هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد ، والكتاب الحى الباقى : « القرآن الكريم » .

ونقرأ فى القرآن فنجد حربا لا هوادة فيها على الشرك والوثنية وتحريرا للعقل الانسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وإيمانا لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة ، وغرساً للفضائل الانسانية والمثل العليا فى نفوس الناس ، ومحاربة للرذائل

والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الاجتماعية فى كل شىء وكل ناحية .

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جمعاً ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولا فضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة أو إنسان على إنسان إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، وتقوى الله وطاعته ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وهكذا قبر الإسلام ورسوله الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الانسانية والعالمية بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

وهكذا غرس محمد صلوات الله عليه بيديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والانسانية والمساواة والإخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ينعمون بعدلها وحكمها يشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

وهل الحضارة إلا آثارة الرقى الانسانى ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحى الحياة ؟

وإذا قسمت ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والانسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا الأمى العربى قد بدل سير التاريخ، وحول مجرى الحضارة . ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان كيف يشكران ، هذا الرسول العظيم .

إن ميلاد محمد ميلاد الحضارة ، وبحق ما أقول ، فلم تكن الحضارة القديمة : من صينية ، وهندية ، وفارسية ، وفرعونية ، وإغريقية ، ورومانية إلا جسما خاليا من الروح ، وبدء نواة لحركة التقدم والرقى الانسانى .

على أن هذه الحضارات مع ما قامت عليه من شتى المبادىء والأسس والنظم الخاطئة لم تستطع أن تحارب الجهل والفقر والهمجية والوثنية إلا فى بقع صغيرة محدودة ، أما أغلب أرجاء العالم فكانت تعيش فى ظلام دامس ، وضلال شامل ، وخوف مفزع ، وفقر ووحشية .

أما الحضارة الاسلامية التى غرسها محمد فقد انتظمت الحياة فى كل ناحية من نواحيها وهذبتها ، وسارت بالإنسانية إلى غايتها النبيلة ، ومثلها الرفيعة ، وحررت الفكر الإنسانى من قيوده وأوهامه . وامتازت بروحانيتها المشرفة، وإيمانها المطلق بمبادىء الخير، واشتراكيتها العادلة التى جعلت الفقير أخا للغنى والغنى أخاً للفقير . والتى ساوت بين شتى الطبقات والجماعات والعناصر .

أخذ رسول الله صلوات الله عليه بنظم فى تؤدة وتدريج حياة الفرد والأسرة ، وشئون المجتمع والأمة ، على أسمى وجه تنشده الإنسانية ، ويصبو إليه المصلحون ودعا الناس إلى غاية مشتركة هى العمل على سعادة الإنسانية ورفاهيتها وتقدمها . والتمكين لحياة التعاون والديموقراطية بين الناس والجماعات والأمم ، وسار على نهجه الكريم خلفاؤه الراشدون . فكانوا المثل الأعلى للملوك الديمقراطيين والحكام العادلين . وبذلك استعاد الفرد كرامته ، والمجتمع سعادته ، والشعب حريته ، والانسانية طمأنينتها ،وعاش الجميع بنعمة الله إخوانا .

« وكانت شريعة الإسلام حاملة التحرر والتقدم والنهضة والحضارة والمعرفة إلى جميع أمم الأرض وشعوبها ، ولها الفضل الأكبر فى قيام الحضارة الصناعية الحديثة . »

لقد عنى ملوك المسلمين بنشر العلم والثقافة والحضارة فى كل مكان ،فى بغداد وقرطبة ومصر ودمشق وحلب وتونس وسواها من عواصم البلاد الإسلامية،وهذه العواصم هى المنابع التى استمد منها الغرب الثقافة والعلم والحضارة فى القرون الوسطى . يقول الأستاذ بريفولت الإنجليزى فى كتابه « تكوين الإنسانية » : تعلم كثير من من المسيحين عند علماء الإسلام . ويقول : إن رئيس

دير كلوتى تأسف على أن رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وانجلترا يردون أفوجا أفواجا إلى المراكز العلمية العربية ، وقال : العلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربيـة على العالم الحاضر ، فلم تكن إيطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة بل الأندلس ، لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظالمة ، بينما العالم العربى : بغداد القاهرة وقرطبة وطليطلة ، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد .



دين الرقى

بدأ الأوربيون بعد الحرب العالمية الأولى ، يطبقون مبدأ الضمان الاجتماعى فى بلادهم ، على الكهول والمرضى والعاجزين عن الكسب واليتامى والأرامل . وبعد الحرب العالمية الثانية بأكثر من خمس سنوات بدأنا نحن ننفذه بقدر ضئيل فى بلادنا ، وعلى وجه التدريج . ويخجلنا أن يكون هذا المبدأ الاجتماعى العادل قد دعا إليه الاسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ونفذه الرسول الكريم وخلفاؤه الراشدون بعده ، وخاصة عمر تنفيذا صحيحا عاما ، ثم ننسى نحن المسلمين تعاليم ديننا وقرآننا ، ونعود بعد أجيال لنقتبس من أوربا مبادىء دعا إليها ونفذها الاسلام .

وفى عهد الرسول بدأ مشروع محو الأمية فى المدينة ومكة ، وفرض على المسلمين عامة طلب العلم ، ونصب الرسول صلوات الله عليه وخلفاؤه الدعاة والمرشدين والمعلمين فى شتى الأقطار والأمصار ، لتثقيف الناس وتهذيبهم ، ووضعت مجانية التعليم . ولكننا نحن المسلمين ، بعد أجيال مديدة ، نعود ونقتبس هذه النظم وتلك المبادىء من الغرب والغربيين ، مفتخرين بأننا بدأنا

نعمل فى طريق الخير والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، وما كان أحرانا بأن نقيم على ديننا وتعاليم القرآن الحكيم ، إذن لكنا أول الصاعدين فى مدارج الحضارة والرقى والمدنية الصحيحة .

وحقوق العامل والفلاح والخادم والمرأة وشتى الطبقات الاجتماعية ، كل هذه قد كفلها الاسلام ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها ، وأنذر من يتعدون عليها بالوعيد الشديد ، ولكننا قد تناسيناها ، ثم عدنا نأخذها قليلا قليلا عن أوربا ، ونطبقها تطبيقا أعوج ، لا يحقق شيئا مما نتوخاه من عدالة وحق وخير للناس عامة ، ومع ذلك فإننا نزهو معجبين ، وندعى أننا أخذنا نطبق قوانين الأمم المتحدة — التى أملتها الانسانية النبيلة — فى بلادنا العزيزة — وأننا يجب أن ننال تقدير العالم كافة ، لأننا نهجنا منهج الأمم المتمدينة فى إصلاح الحياة الاجتماعية . وتهيئة وسائل العيش للطبقات الفقيرة

والعلاج المجانى الذى لا نزال نحلم به هو أصل مقرر فى الحياة الاسلامية من قديم ، ونحن بعد أن حرمنا منه أجيالا مديدة ، نعود فنقتبسه من الغربيين . .

والنظام الديمقراطى الشورى أليس هو مبدأ من مبادىء الاسلام الكريم نفذه الرسول وصحابته وخلفاؤه . ثم انصرفنا

عنه ، حتى عدنا إليه قريبا ، ناقلين له عن الدول الغربية ، نطبقه بقشوره لا بروحه وجوهره . .

ومسئولية الحاكم فى الاسلام مبدأ معروف ، ولا تزال الدول التى تتزعم ركب المدنية فى العالم اليوم تتجاهله وتنأى عنه وتنكره .

ومحاربة الجشع الاقتصادى والاحتكار والربا وأكل مال النـــاس ظلماً ، والاستغلال بشتى ألوانه ، ونهب الحقوق العامة للشعب ، كل هـذا هو روح الاسلام وجوهر مبادئه الانسانية المقدسة .

وإلغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان ، وإقامة العدل بين الناس كافة ، ونشر الإخاء والمساواة ، وتقديس الحريات ، كل أولئك هو مذهب الإسلام فى الاصلاح والنهوض بالطبقات والشعوب ، ولـكننا لا نزال ننـكر هذه المبادىء ونحاربها فى روحها وجوهــــرها ، وإن كنا ندعى ولا نزال ندعى بأننا أول الدعاة إليها والمحافظين عليها ، والساعين لنشرها بين الناس . . إلى غير ذلك من الحقائق الخالدة التى نبعت من الاسلام ، وتفجرت من ينابيع دستوره العظيم . كتاب الله الحـكيم . .

الاسلام . . لا الشيوعية

الإسلام دين الحب والإخاء والمساواة ودين الديمقراطية الحقة، ومهما قيل فى تعريف الديمقراطية وأنها تصريف شئون الدولة على أساس نظام نيابى صحيح ، أو أنها حكومة الشعب للشعب ، أو تكافؤ الفرص أمام جميع المواطنين ، فانه لا يتحقق لها وجود إلا إذا وجدت المساواة التامة بين الناس ، وأصبح لكل فرد أن يرقى إلى أعلى مناصب الدولة ، واعترف بحقوق الانسان اعترافا كاملاً روعيت هذه الحقوق رعاية تامة ، وساد المجتمع تعاون مثمر بين كافة طبقاته ، وبين الحاكمين والمحكومين . . وأساس الديمقراطية هو الإيمان بكفاية الطبيعة الإنسانية ، والاعتقاد بالذكاء البشرى ، والتصديق بمزايا تعاون الملكات . وهى تؤمن بالحرية الفردية وضرورة إنماء شخصية الإنسان ومواهبه ، وترى أن الدولة وجدت من أجل الفرد

ولقد أتى الاسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها ، ويدعو إلى أكرم مافى الحياة من مبادئ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مثل وغايات وأهداف ، ولم يبلغ دين من الأديان أو مذهب من المذاهب مبلغه فى هـــذه السبيل ، فإذا أردنا أن نوازن بين الاسلام وسواه من النظم الحديثة فى هذه الناحية هالنا الفرق بين

دين لحمته وسداه الديمقراطية الحقة ومذاهب تضلل باسم الحضارة الناس والأمم لتوسع نفوذها فى الأرض ولتضيف إلى ما تستعمره ممالك جديدة ، ولتنهب ثروات الشعوب وتستغلها لحسابها أسوأ استغلال . ولنأخذ – مثلا وعلى سبيل الموازنة – الشيوعية وما تصطنعه من نظم تدعى أنها أقرب شىء إلى الديمقراطية . لنوازن بينها وبين ما فى الإسلام الكريم من مناهج للحياة العادلة الحرة المتكافئة العادلة .

إن جميع عناصر الديمقراطية موجودة فى ديننا الخالد، فالحريات مكفولة ، والمساواة بين الناس تامة ، والحاكم يحاسب على أعماله ويقدم للقضاء ، ومسئوليته كاملة عن كل صغيرة أو كبيرة يعملها . والحكم أساسه مشيئة الشعوب ، والعدالة لا تنتهى فيه عند حد ، ولم يستثن من أحكامها فرد مهما عظم ، ولا طائفة أو عنصر أو شعب ، ولا يقف فى طريقها اعتبار الفتح والغلبة والسيادة ، ويقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » : ويقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، ويقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ويقول : « إن الله يأمر بالعدل

والاحسان » . . وحقوق الإنسان فى الحياة والحرية والأمن والتعليم والتأمين الاجتماعى يحميها ويرعاها الله ورسوله وشريعته ؛ فأين هذا من المذهب الشيوعى الذى ليس للديمقراطية وجود فيه ، فأنت لا تجد فى البلاد المحكومة بهذا اللون من الحكم مجتمعاً عالياً ، بل ولا ديمقراطية اقتصادية ، ومظاهر الطغيان واضحة هناك ، فالحريات معدومة ، والمساواة التامة بين الناس لا وجود لها حتى فى المسائل الاقتصادية وأجور العمال . والفروق كبيرة بين الناس ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لا حد له ، والحكم وقف على حزب واحد هو الحزب الشيوعى ، وعلى حاكم واحد يستحيل إقصاؤه عن رياسة الدولة بالطرق الدستورية ، والانتخابات صورية وهى قوائم بأسماء يختارها الحزب ويذيعها على الأمة وينتخبها الناخبون وليس هناك مرشحون سواهم ، وسلطان البوليس السرى الجبار لا يقف عند غاية ، والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى . إن الحرية هى دعامة الحياة الإنسانية المتحضرة ، وإن كانت « ليس لها قيمة كبيرة عند الشيوعيين لأنها فى رأيهم تلهى الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادى » ، وهم يحاولون تحقيق المساواة المزعومة بإلغاء الحرية ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته ، إذ هى مقيدة بمصالح العمال ، وضرورة

إقامة الاشتراكية الشيوعية » . حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الشيوعى ، وليس هناك مجال لتفكير مستقل ، وحرية النشر مقيدة ، ومن المحظور دخول صحيفة أو كتاب أجنبى معاد فى فكرته للشيوعية . والحرية الشخصية لا وجود لها . فالشعب مرهق باستبداد الشيوعيين وهيمنتهم على حريات الناس ، وسلطان البوليس السرى لاحد له ، وللقاضى أن يحكم بالإعدام على كل من يرى أنه خطر على الدولة ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والهدف الأول هو الانتقام من خصوم الشيوعية فى الرأى والمبدأ ، ويجب على الفرد الحصول على تأشيرة خاصة لقضاء إجازة ولو يوما واحداً بعيداً عن بيته ، والرحلة إلى الخارج ممنوعة على الفرد العادى ولا يصرح بها إلا المبعوثين فى مهمات رسمية ، ومنذ عام ١٩٣٣ طبق نظام الجوازات الداخلية التى يجب على كل فرد أن يحملها وتتضمن معلومات عن كافة الشئون التى يهتم البوليس السياسى بمعرفتها ، والستار الحديدى حول البلاد التى تدين بالشيوعية مطبق ، والشعب فى عزلة تامة ، والعامل فى المصنع لا يملك أية حرية ، وعليه أن يعمل لأن « من لا يعمل لا يأكل » ، وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ومنعهم من مغادرة مكان عملهم إلا باذن خاص ، وفى نوفمبر ١٩٣٢

صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوماً واحداً دون سبب كاف ، وجاء فى القانون الجديد للعمل الصادر عام ١٩٣٩ أنه إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فانه يقدم إلى المحاكمة ، فإذا ثبت إدانته حكم عليه بالسجن أو أو السخرة ، ونص على عقوبة السجن والتعذيب للذين يتسترون على مجرمى التأخير ، ولا يقبل عذر من العامل ، إلا المرض الخطير الذى يشهد عليه أطباء المصنع أو موت أحـــد أفراد أسرته ، وحركات التطهير والإبادة العامة عام ١٩٣٣ و ١٩٣٦ و ١٩٣٧ و١٩٣٨ وخلال الحرب الأخيرة وعام ١٩٤٧ للتخلص من خصوم الشيوعية معروفة ، هذا سوى النفى إلى مجاهل سيبريا وسجون الأورال ومعتقلاتها ، وفى عام ١٩٤٤ ألغوا جمهورية الفولجا الألمانية ـ ذات الحكم الذاتى وإحدى الولايات الروسية ـ ونقلوا سكانها إلى المناطق الشرقية ، كما ألغيت جمهوريتا القرم والكالموك الذاتيتان ونقل سكانها إلى قازاخستان ، ويقول كاتب : إن فى امبراطورية الاتحاد السوفييتى اليوم أربعة عشر مليوناً من العبيد فرضت عليهم السخرة وهم يعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ويحميها رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية وأسراب من الكلاب لمطاردة من يفر من هؤلاء الأرقاء ، وهم يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها

وهؤلاء من الذين يعارضون الشيوعية أو ينقدونها أو يشتبه فى أمرهم ، ومن رجال الدين الذين يعرقلون عمل دعاة الالحاد فى روسيا ومن أعداء الشيوعية من غير أهلها . . والحرية السياسية هناك معدومة إذ ليس هناك إلا حزب واحد وانتخابات صورية وحاكم واحد ، والحرية الدينية معدومة ، والحرية الاقتصادية لا وجود لها . فالمصانع والمزارع وأدوات الإنتاج ومرافق الثروة ملك للدولة . والفرد يعمل أجيراً لديها نظير طعامه ، لا رأسمالية ولكن هناك الرأسمالى الأكبر الذى لا يقاوم وهو الحكومة ، مما ينعدم معه التنافس الاقتصادى الذى هو أساس الحرية الاقتصادية، والديمقراطية الحقيقية ماهى إلاحريات اقتصادية تقترن بالحريات السياسية ، وليس هناك تفكير إلا فى الدولة دون التفات إلى الفرد باعتباره فرداً ، يقول أندريه جيد : « أعرف جيداً أن الماركسية الشيوعية لا تؤمن بشىء اسمه الحق »

فأين هذا من الإسلام الكريم ومبادئه الخالدة ، وإطلاقه للحريات إلى أوسع مدى وأبعده غاية ، لحرية العقل والفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية والحريات العامة وحرية الاجتماع والخطابة والتشاور ، وحرية الانسان فى مسكنه وفى اختيار لون الثقافة التى يريدها له ولأبنائه ، والحرية

السياسية ، كل هذه الحريات قد قررها ودعا إليها ورعاها وحماها الإسلام وكتابه الكريم ، حتى حرية الدين نص عليها القرآن الكريم بقوله : « لا إكراه فى الدين » ، مادام هذا الدين الذى يؤمن به الإنسان دينا سماويا صحيحا ، أما الشرك والوثنية ودعوات الإلحاد فلا يعترف بها الإسلام لأنها انتكاس فى الإنسانية وطمس للفكرة الإلهية وقضاء على كرامة الإنسان وعقله ووجوده الفكرى والروحى والأدبى والاجتماعى ، وليس للحاكم أن يستبد بالمحكومين ، ولا طاعة له إلا فى حدود القوانين والشريعة ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وللشعب أن يقومه إن زاغ ولذلك قال عمر « أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » وقال : إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، ويقول رسول الله صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته . . إن مذهبا من المذاهب ، وشريعة من الشرائع لا يبلغان ما بلغه الاسلام فى إطلاق الحريات العامة للإنسان . . .

وفى شتى المبادىء والمثل التى دعا اليها ، وحض عليها . . .

فهرست الكتاب

رقم الصفحة

مطبعة الوحدة
٨ شارع سيف الدين المهرانى بالفجالة ت ٤١٦٨٣٢